أجاثا كريستي

الطيور المُفترسِة

دار النجمة للنشر والتوزيع

الطيور المُفترسة
وقصص أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الطيور المُفترسة
وقصص أخرى

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الطيور المفترسة

كان الجو جميلاً والسماء صافية ينعكس لونها الأزرق على ماء البحيرة الهادئ فيجعلها كبساط من المخمل، وكان هارولد وورنج جالساً في شرفة الفندق يدخن مسروراً منشرح الصدر، فقد أقبلت عليه الدنيا وهو في نضارة الشباب وأصبح وزيراً مرموقاً وهو في الثلاثين من عمره. وقرر أن يستجم من عناء العمل في سلوفاكيا، في هذا الفندق الصغير الواقع على بحيرة ستمبكا.

وكان من رواد هذا الفندق سيدتان إنجليزيتان هما السيدة رايس وابنتها المتزوجة السيدة كلايتون. كانت السيدة كلايتون جميلة المحيا ولكنها محافظة وخجولة، أما أمها السيدة رايس فكانت سيدة مرحة حسنة العشرة، فأحب هارولد الاثنتين معاً.

ولكن كانت هناك امرأتان أخريان أثارتا فضول هارولد، رآهما وهو جالس في شرفة الفندق خارجتين من البحيرة بلباس البحر وقد توارت الشمس بين السحب، فأحس برعدة تسري في بدنه. حملق فيهما ملياً فرأى أنفيهما الطويلين المحدودبين كمناقير الطيور ووجهيهما القريبي الشبه، والسترتين الخفيفتين اللتين تصفقهما الريح فوق أكتافهما كأجنحة الطيور.

وتوجهت السيدتان إلى الشرفة ومرتا بجانبه، وكان يخيل للناظر إليهما أنهما شقيقتان لقرب الشبه بينهما. لقد روعه منظر أيديهما الشبيهة بمخالب الطيور!

كانت نظراته الأخيرة لهما مع مغيب الشمس، فسرت في أوصاله رعدة أخرى. وبعد قليل خرجت السيدة رايس من الفندق فدعاها إلى الجلوس معه، قال لها: هل رأيت تينك السيدتين اللتين دخلتا الفندق منذ لحظة؟

- كانتا ترتديان سترتين؟ نعم، ومرتا بجانبي.

- مخلوقتان عجيبتان، أليس كذلك؟

- نعم، فقد وصلتا أمس، ويلوح أنهما توأمان.

فقال هارولد: ربما كنت واهماً، ولكني أوجس منهما شراً. سنسأل عنهما، ولكنهما غير إنجليزيتين كما أظن.

وحان موعد تناول الشاي فسألها السيد هارولد عن ابنتها، فقالت: لقد خرجت أليس في نزهة حول البحيرة، وربما لا تتناول الشاي معنا، فقد وصلها خطاب من زوجها.

قال هارولد مندهشاً: زوجها؟! لقد كنت أحسبها أرملة.

فنظرت إليه السيدة رايس بحدة وقالت: إنها ليست أرملة مع الأسف... الشراب هو سبب شقائها يا سيدي.

قال هارولد مأخوذاً: هل يدمن زوجها؟

- ليت الأمر كان قاصراً على الشراب، ولكنه قد جمع أقبح الصفات، فهو غيور حاد الطبع. وإن أشد ما يؤلمني في هذه الحياة أن أرى ابنتي الوحيدة غير موفقة في حياتها الزوجية.

- مع أنها سيدة لطيفة مثالية الأخلاق.

- ربما كان لطفها ودماثة خلقها هما سب عدم توفيقها في

حياتها. لقد كانت الحياة قاسية عليها.

- ولكن كيف تزوجت ذلك الرجل؟

- كان فيليب كلايتون جميل الطلعة وافر الثروة جذاب الحديث، وكنت قد ترملتُ منذ زمن طويل وأعيش أنا وابنتي وحيدتين، ولم تكن لدينا الخبرة الكافية للحكم على أخلاق الرجال كما لم نجد -لسوء الحظ- من ينبئنا عن أخلاقه الحقيقية.

قال هارولد: مسكينة أليس!

وأحس بموجة من الأسى تنتابه لما أصاب تلك الفتاة التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين والتي أسرته بحديثها الشهي ونظراتها الساذجة البريئة، حتى جعلته يشعر نحوها بشيء أقوى وأعنف من الصداقة... ولكنها متزوجة!

* * *

قضى هارولد أمسيته مع السيدة رايس وابنتها أليس التي كان يبدو من جفنيها الحمراوين أنها قد خرجت لتوها من نوبة بكاء، وقالت السيدة رايس: لقد عرفت السيدتين الغريبتين اللتين تسأل عنهما. إنهما تجلسان في ذلك الركن، وقد قيل لي إنهما بولنديتان من أسرة أرستقراطية.

فنظر إليهما هارولد، وقالت أليس: هاتان السيدتان الجالستان هناك؟ يا للعجب! إنهما تبدوان مخيفتين ولا أدري لماذا، ويخيل إليّ أن في حياتهما سراً.

قال هارولد: هكذا كان حكمي عليهما.

قالت السيدة رايس: على كل حال، لا يستطيع الإنسان أن يحكم عل الناس بمجرد النظر إليهم.

قالت ابنتها أليس: هذا صحيح، ولكنهما مع ذلك تبدوان كالطيور الجارحة!

قالت السيدة رايس: إنهما على كل حال لا ينتظر أن تعبرا طريقنا.

قالت أليس: وليست لنا أسرار خفية.

فقالت السيدة رايس وهي تنظر إلى هارولد نظرة خفية: ربما كانت للسيد هارولد أسرار.

- كلا، ليست لي أسرار وحياتي كتاب مفتوح.

ثم استطرد قائلاً: ما أغبى أولئك الذين يتنكبون الطريق السوي. إن كل ما يحتاجه الإنسان في حياته هو الصراحة ونقاء الضمير، وبهذا يستطيع أن يواجه الحياة من غير أن يدع لأحد فرصة للتدخل في شؤونه.

* * *

كان هارولد كسائر بني جنسه الإنجليز لا يجيد غير لغته الأصلية، ولكن هذا النقص لم يكن يهمه كثيراً إذ كان يجد في أسفاره الخارجية من يحسن التحدث إليه بالإنجليزية. ولكنه في هذا الإقليم السلافي وجد مدير الفندق لا يتكلم سوى الألمانية، ولكن إحدى صديقتيه كانت تتطوع بالترجمة له أحياناً.

صمم هارولد على تعلم الألمانية فاشترى كتابين لدراستها.

وكان الصباح جميلاً، فأخذ هارولد يكتب بعض خطاباته، ثم نظر إلى ساعته فوجد أنه لا يزال في الوقت متسع للتنزه حول البحيرة، وفي أثناء جولته استرعى انتباهه صوت سيدة تنتحب فسار نحوها. وجد أليس تجلس على جذع شجرة وقد دفنت وجهها بين يديها، فوقف لحظة متردداً ثم تقدم نحوها وقال بلطف: سيدة كلايتون. أليس...

رفعت رأسها ونظرت إليه، فجلس بجانبها وقال: أرجو أن تأمري بما تريدين، يمكنني أن أساعدك.

فهزت رأسها وأجابت: لا. ما أجمل عطفك، لكن مأساتي مستعصية.

- هل الأمر خاص بزوجك؟

فجففت عينيها وأصلحت من زينتها وأجابت: حاولت ألا أزعج أمي لأنها تحزن كلما رأتني أبكي، ولهذا أتيت إلى هذا المكان. إن البكاء لا يجدي في كثير من الأحيان لكنه الوسيلة الوحيدة عندما لا تطاق الحياة.

قال هارولد: إنني آسف جداً من أجلك يا عزيزتي.

فرمقته بنظرة شكر وقالت: ولكنها غلطتي لأنني تزوجته بمحض رغبتي، ولا ألوم إلاّ نفسي.

- وهكذا فاضت الكأس بما فيها؟

- ليتني كنت شجاعة كما تتخيل. لكنني أخافه بشدة، أخافه عندما يغضب.

- يجب أن تتركيه.

- لن أجسر على ذلك لأنه لن يدعني.

- وما رأيك في الطلاق؟

فهزت رأسها قليلاً وقالت: لكن أين هي الأدلة التي تساعدني على طلب الطلاق؟ لقد تكلمت مع أمي كثيراً في هذه المسألة من غير جدوى. إن عيب كلايتون أنه شديد الغيرة، ويوم يراني أتحدث إلى رجل يغضب ويثور ثورة جامحة.

لقد سمع هارولد نساء كثيرات ينحين باللائمة على أزواجهن بسبب الغيرة، وقد كان يعذر هؤلاء الأزواج المساكين، ولكن أليس هذه لم تكن من أولئك النساء.

ابتعدت عنه أليس قليلاً ونظرت إلى السماء وقالت: لقد أصبح الجو بارداً ويحسن بنا أن نعود إلى الفندق.

وفي أثناء عودتهما لمحا إحدى السيدتين العجيبتين تسير. كانت تتجه نحو الفندق، وحين اقتربا منها أحنيا رأسيهما بالتحية، لكنها بدلاً من أن ترد التحية حدجتهما بنظرة قاسية ارتعدت لها فرائص هارولد، وظن أنها قد رأتهما جالسين فوق جذع الشجرة يتحدثان فطاف بذهنها شيء من الظنون القذرة.

ذهب هارولد إلى غرفته نحو العاشرة مساءً بعد أن تسلم البريد ووجد أن بعض الخطابات تحتاج إلى رد سريع. جلس بثياب النوم إلى المكتب ليرد على الخطابات فكتب ثلاثة ردود، ولما بدأ الخطاب الرابع فُتح الباب فجأة ودخلت أليس. وذهل هارولد حين رآها.

أغلقت الباب خلفها ووقفت مبهورة الأنفاس مذعورة كأنها هربت من موت محقق، وقالت وهي تلهث: لقد حضر زوجي فجأة. إنه سيقتلني... فأرجوك ألا تدعه يمسك بي.

وحاولت أن تتحرك من مكانها قليلاً فلم تستطع، فأسندها هارولد بذراعه. وفي هذه اللحظة فُتح الباب فجأة وبرز منه رجل متوسط الطول كث الحاجبين كثيف الشعر، يحمل في يده عتلة حديدية ضخمة. وصاح بأعلى صوته: لم تكن هذه المرأة كاذبة حين أخبرتني عن علاقتك بهذا الشخص؟

فقالت أليس: لا، لا، لم تكن صادقة. أنت مخطئ يا فيليب.

حجزها هارولد خلفه عندما تقدم فيليب نحوها وهو يصيح ويهدد: هل أنا مخطئ؟ إنني أراك في غرفته.

وراح يحاول جهده أن يحطم رأسها بالعتلة الحديدية التي يحملها بيده، فكان هارولد يدفع عنها يده حتى تمكنت من الهرب إلى غرفتها في نهاية الدهليز وأغلقت الباب. فلحق بها فيليب واقتحم الباب، وسمعها هارولد تصيح وتستغيث فأسرع إليها. وجد زوجها يضربها بقسوة وهي تحاول الإفلات منه، وأخذت تتلفت كالقطة المذعورة بحثاً عن شيء تدافع به عن نفسها، فتناولت من المنضدة ثقلاً من الحديد وألقته على رأس زوجها بشدة فخر على الأرض صريعاً.

ركعت بجانبه في رعب وخوف لترى ماذا حل به، ولكنها سمعت أحد الأبواب في الدهليز يفتح. فأسرعت نحو هارولد الذي لم يبرح غرفتها ورجته أن ينصرف بسرعة لأن وجوده

في غرفتها قد يثير سوء تفاهم، بل قد يثير فضيحة تمسها كما تمسه.

عاد هارولد إلى غرفته بسرعة وبقي يترقب ماذا سيحدث وهو في شدة القلق والاضطراب، وبعد نصف ساعة سمع طرقاً خفيفاً على الباب فقفز من مكانه ليرى من القادم. ولم تكن أليس كما كان يتوقع، وإنما كانت أمها وقد أقبلت إليه فزعة مضطربة وهي تلوح أكبر سناً مما كانت، فقد ابيض شعرها وتجعد وجهها واسود جفناها.

قال لها: أتتناولين شراباً يرد إليك قواك؟

فهوت على الكرسي وقالت: لا، فأنا بخير.

- هل حدث شيء لكلايتون؟

- لقد مات.

دارت الدنيا بهارولد وأحس كأنه قد غرق في ركام من الجليد فانعقد لسانه. وبعد لحظة أفاق من دهشته وسأل: هل مات حقاً؟

- لقد أصابه الثقل الحديدي في الجمجمة فهوى على حديد المدفأة، ولا أدري أيهما كان السبب في قتله، ولكنه مات على كل حال.

فقال هارولد: كان حادثاً عرضياً، وقد رأيته بعيني رأسي.

فقالت السيدة رايس بحدة: طبعاً، وأنا أعرف ذلك، ولكن

يجب أن يظل الأمر سراً. وأصارحك يا سيد هارولد بأنني خائفة جداً، فنحن لسنا في إنجلترا.

قال هارولد: أؤكد لك من ناحيتي أنني سوف أكتم سر الحادث.

وقالت السيدة رايس: وهي ستكتم كذلك مسألة وجودك أثناء الحادث.

* * *

لم يكن هارولد من السذاجة والغباء بحيث يمكنه الركون إلى هذا الحديث، فأخذ يستعرض في ذهنه الموضوع من أوله ويستشف نقط الضعف فيه ويزنها بميزان دقيق. لقد قابل أليس جالسة فوق جذع الشجرة وقضى معها لحظة يتحدثان، ورأتهما المرأة الغريبة وسمعت بعض حديثهما، وهي وإن كانت تجهل الإنجليزية فلا شك أنها تعرف معنى الكلمات التي ترددت أثناء حديثهما (كالزواج والغيرة)، فلم يغب عنها لماذا كانا مجتمعين. وقد أثارت تلك المرأة حفيظة فيليب كلايتون بما نقلته إليه، والآن مات كلايتون وشهد هارولد حادث موته، وليس هناك أقل دليل على أن أحداً لم يتعمد قذف الزوج بالثقل الحديدي على رأسه، وليس هناك أي دليل يثبت أن الزوج الغيور لم يجد امرأته مع هارولد في غرفته... ليس هناك سوى ما يقوله هو أو تقوله أليس. ولكن هل سيجدان من يصدقهما؟

وهنا اعترته هزة خوف عنيفة، فإذا قُدّر له أو لأليس النجاة من عواقب هذه الحادثة التي ستظل غامضة أمام القضاء فهناك الصحف التي ستتلقف أنباءها وتنشرها بعناوين مثيرة: "إنجليزي

وامرأة يتهمان بقتل زوج غيور... الإنجليزي سياسي لامع". وبهذا سيقضى على مستقبله السياسي.

قال فوراً: هل يمكننا أن نتخلص من الجثة بأية طريقة؟

فنظرت إليه السيدة رايس في دهشة واستعلاء جعلاه يشعر بالخجل وقالت: لسنا أمام جريمة بوليسية يا عزيزي هارولد فنحاول ارتكاب هذا العمل الجنوني.

- أظنه المهرب الوحيد من هذه الورطة، وإلاّ فماذا نصنع؟

هزت السيدة رايس رأسها مستيئسة، وتقطب جبينها وانغمست في تفكير عميق، فسألها هارولد: ترى ماذا يمكن أن يخلصنا من هذا المأزق؟

صمتت السيدة قليلاً ثم قالت: لو تركنا المسألة تسير في طريقها الطبيعي فستكون النتيجة هلاك ابنتي وضياع مستقبلك.

قال هارولد: لا يهمني مستقبلي...

ولكنه من غير شك لم يعبّر بهذه الكلمة عن شعوره الحقيقي، فقالت السيدة رايس: والأدهى أنه لم تكن هناك علاقة بينك وبين ابنتي كما أعلم.

قال هارولد: أظنك تستطيعين أن تقرري هذه الحقيقة.

- نعم، وأرجو أن يصدقوا كلامي، فنحن لا نعرف طباع الناس هنا.

فكر هارولد في عقلية الريفيين وما درجوا عليه في مثل

هذه المسائل من تأويلها إلى علاقات غرامية، ومهما قالت الأم فلن يصدقوها لأنها تريد إنقاذ ابنتها. وقال بصوت حزين: نعم، لسنا في إنجلترا لسوء الحظ.

فرفعت السيدة رايس رأسها وقالت: لسنا في إنجلترا حقاً، وإني لفي حيرة مما سنعمل، هل معك قدر كافٍ من المال؟

قال هارولد: ليس معي قدر كافٍ، وإنما يمكنني أن أطلب بالبرق ما أحتاج إليه من مال.

فأجابت السيدة رايس: سنحتاج إلى مبلغ كبير يكفي لتنفيذ فكرة خطرت لي.

فقال هارولد بصوت تلوح فيه نبرات اليأس: وما هي تلك الفكرة؟

قالت السيدة رايس بصوت قوي: ليست أمامنا فرصة لإخفاء الجثة وإنما يحسن أن نعلن نبأ الوفاة بكل هدوء.

فلاحت في عيني هارولد بارقة من أمل لم يتوقعها وقال: هل ترين ذلك حقاً؟

- نعم، وسيكون مدير الفندق في جانبنا، فليس من مصلحته أن يعلن عن وقوع جريمة في فندقه تسيء إلى سمعة الفندق. وأعتقد أنه من السهل في مثل هذا الريف البلقاني أن نرشو أي شخص، ورجال الشرطة هنا أكثر الناس ميلاً إلى الرشوة.

قال هارولد: أنا في الحقيقة مقتنع بصدق رأيك.

فردت السيدة رايس: ومن حسن الحظ أن أحداً من النزلاء

لا يعلم بما حدث في الفندق.

- ترى من ينزل بالغرفة المجاورة لغرفة أليس؟

- السيدتان الغريبتان. وأظنهما لم تسمعا شيئاً، وإلاّ لخرجتا إلى الممر للتحقق مما حدث. كما أن فيليب وصل متأخراً ولم يره أحد غير الحارس الليلي. ولهذا أعتقد أنك توافقني يا سيد هارولد على إعلان نبأ وفاة كلايتون رسمياً. فنستخرج شهادة وفاة طبيعية ولا يكلفنا ذلك إلاّ أن نكون أسخياء في دفع الرشوة إلى رئيس الشرطة المختص.

فابتسم هارولد وقال: ستتحول القصة إلى كوميديا مسرحية. حسناً، يجب أن نحاول على كل حال.

* * *

كانت السيدة رايس شخصية نشيطة لا تعرف السكون، فاستدعت قبل كل شيء مدير الفندق، وكانت الرواية التي اتفقت مع هارولد على ذكرها هي: شجار حدث بين أليس وزوجها، وسيثير شبابها وجمالها الفاتن كل العطف عليها.

وفي صباح اليوم التالي أقبل بعض ضباط الشرطة وتوجهوا إلى غرفة السيدة رايس، ثم تركوها عند منتصف الظهر.

وأبرق هارولد لطلب النقود ولكنه ظل بعيداً عن تحريات الشرطة بسبب جهله للغة السلافية، وفي تمام الساعة الثانية عشرة أقبلت السيدة رايس إلى غرفة هارولد شاحبة اللون متعبة ولكن أسارير وجهها تتم عن الارتياح، وقالت: لقد تمّ كل شيء.

- الحمد لله، لقد كنت رائعة حقاً... إنني لا أكاد أصدق.

فردت السيدة رايس بصوت عميق: لقد انتهت المسألة بسهولة لدرجة جعلتني أتصور أنها كانت طبيعية. ولكن الجميع كانوا يبسطون أيديهم في طلب الرشوة.

قال هارولد: ليس هذا وقت الجدل في الرشوة وكم بلغت.

- لكن المبلغ ضخم.

وأخذت سيدة رايس تقرأ كشفاً في يدها: أولاً: رئيس الشرطة، ثانيا: مفتش الشرطة، ثالثاً: الوسيط، رابعاً: الطبيب، خامساً: مدير الفندق، سادساً: الحارس الليلي للفندق...

ولم يعلق السيد هارولد على هذا البيان إلاّ بقوله: لا داعي أن تدفعي مبلغاً كبيراً لحارس الفندق.

فردت السيدة رايس: ولكن مدير الفندق أصر على أن يكون حادث الموت قد حصل خارج الفندق، ولهذا رتب الوضع الرسمي للرواية على أن فيليب شعر بنوبة قلبية وهو في القطار فقام من مكانه وخرج يسير في الممر حتى وصل دون أن يشعر إلى الباب، وقد كان مفتوحاً، فسقط من القطار. ورجال الشرطة -كما تعلم- لا يعجزهم شيء عندما يريدون قلب الحقائق.

فقال هارولد: أحمد الله على أن رجال سكوتلانديارد ليسوا من هذا الطراز.

ثم ذهب وهو معتز بقوميته لتناول الغداء.

* * *

صمم هارولد ألا يغير ما جرى عليه في الأيام السابقة وهو أن يتناول القهوة بعد الغداء مع السيدة رايس وابنتها. ورأى أليس للمرة الأولى بعد تلك الحادثة المروعة، وكانت صفراء اللون لا تزال تعاني آثار الصدمة العنيفة رغم تجلدها وإخفاء شعورها بالتحدث عن الجو والمناظر الطبيعية.

وأخذوا يتحدثون عن الشخصية الغريبة التي نزلت بالفندق ولكنها مجهولة الهوية، فقال هارولد: إن هذه الشوارب الكبيرة لا تكون إلاّ لفرنسي.

قالت أليس: ويحتمل أن تكون لألماني.

وقال السيدة رايس: أظن أنها شوارب إسباني.

ولم يكن معهم أحد في شرفة الفندق غير السيدتين الغريبتين، وقد انتحتا ركناً بعيداً. وكان هارولد كلما وقع نظره عليهما انتابته رعشة تهز أوصاله لغرابة أنفيهما الشبيهين بمناقير الطيور وأيديهما المماثلة لمخالب النسور. وأتى الخادم يخبر السيدة رايس أن شخصاً يريد مقابلتها، فقامت تتبعه، وعند مدخل الفندق كان ينتظرها ضابط بثيابه الرسمية، ولم يكن هذا المدخل بعيداً عن الشرفة. فقالت أليس للسيد هارولد في خوف وذعر: هل تظن أن المسألة لا تسير في طريقها الطبيعي؟

فقال هارولد: لا، لا. كل شيء يسير على ما يرام.

ولكنه أحس في دخيلة نفسه بأن شيئاً ما حصل، ثم عاد يقول: كانت أمك مدهشة في عملها.

فردت أليس: أنا أعرف أمي جيداً، فهي دؤوبة على الكفاح

لا ترضى بالهزيمة، لكن المسألة خطيرة جداً، أليس كذلك؟

- لا تفكري طويلاً، فكل شيء سيمر بسلام.

فقالت أليس بصوت خافت: ولكني لا أنسى أنني قتلته!

فقال هارولد بسرعة: لا تنظري إلى المسألة من هذا الجانب، لكن اعتبريها حادثة قهرية.

وعادت السيدة رايس وعلى وجهها دلائل الارتياح وهي تقول: لقد خفت في بادئ الأمر، ولكنه جاء يستوفي بعض الأوراق. كل شيء يسير على ما يرام يا أولادي، فقد استُبعدنا من الحادث كلية.

وأحسوا بسرور عظيم، وفي تلك اللحظة قامت السيدتان البولنديتان من مكانهما من الشرفة تطويان الصوف الذي تعملان فيه الإبر، ثم مرتا بالقرب من حاجز الشرفة حتى أصبحتا بالقرب منهم، وبعد انحناءة خفيفة جلستا بقرب السيدة رايس. وبدأت إحداهما الحديث بينما راحت الأخرى تصوب نظرها إلى أليس وهارولد وتبتسم لهما ابتسامة لم يجدا فيها أقل معنى للظرف والإخلاص.

وأخذ هارولد ينظر إلى السيدة رايس وهي تتحدث مع السيدة الأخرى بلغة وإن لم يفهمها إلاّ أنه عرف مدلولها على محيا السيدة رايس الذي تجهم بسرعة وعادت إليه أمارات الحزن واليأس. ولكن يبدو أن السيدة رايس قد أخذت من المعلومات أكثر مما أعطت. ثم انصرفت السيدتان ودخلتا إلى الفندق، واقترب هارولد من السيدة رايس وسألها بصوت أجش: ماذا حدث؟

فردت السيدة رايس بصوت تتخلله نبرات اليأس: هاتان المرأتان ستشيان بنا لأنهما سمعتا كل شيء في الليلة الماضية، ونحن الآن على أهبة إعلان الوفاة رسمياً، ولكن بلاغ هاتين السيدتين سيقلب الأمر ضدنا.

* * *

نزل هارولد ليتمشى حول البحيرة وهو كالمحموم لعله يستطيع بهذه الرياضة السهلة أن يستعيد نشاطه ويرفه عن أعصابه من أثر هذا اليأس القاتل الذي انتابه، ووصل إلى المكان المشؤوم الذي التقت عنده السيدتان به وبأليس فصوبتا نحوهما من سهامهما المسمومة ما نغّص عيشهما، وتمتم يقول: لعنة الله عليهما...

ولكن صوت سعال خفيف جعله يدير وجهه، فرأى الرجل ذا الشارب الكبير يخرج من تحت ظلال الأشجار. ماتت الكلمات على شفتي هارولد ومحيت من صفحة ذهنه كل المعاني التي يريد التعبير عنها، ولكن هذا الرجل قد سمع من دون ريب ما كان يقوله الآن. فقال وهو يتظاهر بالسرور: طاب مساؤك يا سيدي.

فرد عليه الرجل بلغة إنجليزية واضحة: ولك طيب المساء يا سيدي، وإن كنت أخشى ألاّ يكون كذلك.

فقال هارولد وقد عاوده الحزن ثانية: حسناً، أنا...

فقال الرجل: يخيل إليّ أنك تعاني مشكلة خطيرة، ويمكنني أن أساعدك إذا أردت.

- لا، شكراً، شكراً. وإنما أردت الهروب من الحر كما تعلم.

فرد الرجل بلطف وهدوء: ولكني أعتقد بأنني كفيل بمساعدتك، إن لم أكن مخطئاً في تقديري سأعاونك في حل مشكلتك مع السيدتين اللتين كانتا تجلسان في الشرفة.

فحملق فيه السيد هارولد وقال: هل تعرف عنهما شيئاً؟ ترى من تكون أنت؟

فرد الرجل: أنا هيركيول بوارو. هيا بنا نتمشى قليلاً في داخل الغابة فتخبرني عن حكايتك من أولها، وأنا -كما قلتُ- كفيل بمساعدتك.

لم يدرِ هارولد لأي سبب يبوح بأسراره لإنسان غريب لم يره في حياته إلاّ منذ بضع دقائق، والمهم أنه روى القصة لبوارو الذي أصغى بانتباه وهزّ رأسه مرة أو مرتين في جد وهدوء. حتى إذا ما انتهى هارولد من روايته قال بوارو: الطيور الجارحة التي تقتات من لحوم البشر وتعيش على ضفاف البحيرة...

فقال هارولد: أستميحك عذراً؟

وقد ظن أن بهذا الرجل لوثة وخبل، فقال بوارو مبتسماً: إنني أفكر بصوت مسموع، وهذه طريقتي في تناول الأمور. أما فيما يتعلق بمشكلتك التي سمعتها فيؤسفني أن أقول إنك في مركز دقيق.

قال هارولد بقلق: لست في حاجة إلى أن تخبرني بذلك.

لكن بوارو استمر يقول: نعم، إنك لن تنجو من الاتهام

وستستغل هاتان السيدتان موقفك من هذه الجريمة وتسلبان منك أموالاً وفيرة للتستر عليك، ولكن ماذا سيحدث لو أنك قصرت في إمدادهما بالمال المطلوب؟

فرد هارولد بمرارة: يحم القضاء وينهار مستقبلي السياسي، وتسجن فتاة بريئة لم تؤذِ في حياتها مخلوقاً، والله وحده يعلم مصيرها المشؤوم.

فقال بوارو: وعلى ذلك يجب أن نفكر فيما سنقوم به من عمل حاسم.

فسأل هارولد: ماذا؟

فصمت بوارو قليلاً، بينما مرت بذهن هارولد لمحة من الشك والارتياب في نواياه، ثم قال بوارو: لقد حانت ساعة الدق على الناقوس.

فرد هارولد: أنت مجنون حقيقة!

فهزّ بوارو رأسه وقال: كلا يا عزيزي، ولكني أحب أن أتبع أمثال أسلافي الأبطال. أرجوك أن تصبر بضع ساعات، وغداً سترى كيف أنقذك ممن يتعقبونك للإضرار بك.

* * *

في صبيحة اليوم التالي ذهب هارولد إلى شرفة الفندق حيث وجد بوارو جالساً بمفرده، فأحس بشيء يدفعه نحوه للتحقق مما وعده به. ذهب إليه يسأله في لهفة وشوق: هل تسير الأمور على ما نحب؟

فالتفت إليه بوارو وأجاب: نعم، كل شيء على ما يرام.

- ماذا تعني بذلك؟

انتهت الأمور كما تشتهي.

- ولكن ما الذي حدث؟

قال بوارو بهدوء: لقد نقرت على النواقيس، أو بالتعبير الحديث: حركت أسلاك البرق. بالاختصار: لقد أرسلت برقية، وسيجلو الطائران الغريبان عن هذا المكان وسيفزعان إلى جهة بعيدة، وبهذا سيستحيل عليهما تدبير حيلهما الشيطانية لاقتناص الغافلين مرة أخرى.

قال هارولد: إذن فقد كانت الشرطة تطاردهما، وقد قبضت عليهما في النهاية؟

- هذا ما حدث بالضبط.

فتنفس هارولد الصعداء وقال: يا للعجب! ما كان يخطر ببالي أن المسألة ستنتهي على هذا النحو.

ثم نهض واقفاً وهو يقول: سأذهب إلى السيدة رايس وابنتها أليس لأخبرهما بهذا النبأ السار.

قال بوارو: لقد عرفتا كل شيء.

فجلس هارولد ثانية وقال: حسناً، أخبرني إذن بما حدث.

ولكنه سكت فجأة عندما لمح السيدتين الغريبتين تخرجان من البحيرة بأنفيهما الشبيهين بمناقير الطيور وأيديهما الشبيهة بمخالب النسور وسترتيهما المتمايلتين كالأجنحة، فقال وهو

يرتعد: أظنك قلت إن الشرطة قد قبضت عليهما.

فنظر بوارو إليهما وقال: أوه، هاتان السيدتان؟ لقد أخبرك البواب أنهما من عائلة أرستقراطية، ولكنك استغربت أناقتهما المفرطة والخالية في الوقت ذاته من الذوق والجاذبية.

قال هارولد: لا أزال غير فاهم لما تقول.

فقال بوارو: أنت لم تفهمني، لقد عنيت بالسيدتين المطارَدتين من الشرطة اثنتين أخريين هما السيدة رايس والسيدة كلايتون. إنهما المشهورتان باسم «الطائرين المفترسين» وتعيشان بطريقتهما المعروفة، وهي الابتزاز.

فشعر هارولد بالدنيا تدور به، ثم قالت بصوت ضعيف: ولكن الرجل... الرجل الذي قُتل؟

- لم يقتل أحد، ولم يكن هناك رجل.

- لكني رأيته بعيني.

فرد بوارو: كلا، وإنما هي السيدة رايس بقامتها المديدة وصوتها الأجش استطاعت أن تمثل دور الزوج بكل إتقان.

ثم انحنى إلى الأمام قليلاً وربت على ركبة هارولد، واستأنف حديثه: يخيل إليّ يا صديقي أنك لم تختبر الحياة بعد، فهي مليئة بالعجائب. ليس من السهل رشوة رجال الشرطة في الأرياف، وربما يستحيل ذلك في جرائم القتل. وقد استغلت المرأتان جهلك باللغات الأجنبية فقابلت السيدة رايس مدير الفندق، وهي -كما تعلم- تتكلم الألمانية والفرنسية. ثم حضر رجال الشرطة وذهبوا إلى غرفتها. وهذه مسألة سهلة لأن مثل

هذه المرأة لا تعدم وسيلة لإحضار رجال الشرطة، إذ يمكنها أن تدّعي مثلاً أنها قد فقدت مشبكاً ماسياً ثميناً أو أية حلية ذات قيمة. وماذا حدث بعد ذلك؟ طلبت أنت بالبرق مبلغاً كبيراً من المال، وعندما وصلك المال سلمته إليها حتى لا تخفق مفاوضاتها المزعومة. ولم تكتف السيدتان بما سلبتاه منك بتلك الحيلة المدهشة، بل دفعهما الطمع إلى استغلالك ما دمت حياً، فحين جاءت السيدتان الأنيقتان وجلستا إلى جوار السيدة رايس جلسة بريئة وأخذت إحداهما تتحدث إليها بلغة لم تفهمها، حينذاك أمكن للسيدة رايس أن تدبر حيلتها الثانية لسلب أموالك تباعاً بدعوى أنها سترشو تينك الجاسوستين البريئتين. ولا شك أن الخدعة انطلت عليك مثل سابقتها.

فتنفس هارولد الصعداء وسأل: وأليس؟ أليس؟

- لقد مثلت، هي الأخرى، دورها بمهارة عظيمة، لأنها ممثلة صغيرة بارعة. لكن كل شيء فيها يدل على البراءة، وهي لا تستحق الإعجاب لأنوثتها بل لشجاعتها.

وسكت بوارو قليلاً ثم قال بصوت خافت: والإنجليز يغرمون كثيراً بالشجاعة.

فقال هاورلد: سأبذل قصارى جهدي لتعلم اللغات الأوروبية حتى لا أدع لأي مخلوق فرصة لخداعي مرة ثانية.

* * *

سر الجَرّة الزرقاء

وقف جاك هارتنغتون بجوار الكرة ونظر إلى الساحة الخضراء المترامية أمامه نظرة من يريد أن يقيس أبعادها، ثم تناول مضرب الغولف وهوى به على بعض الأعشاب المحيطة بالكرة فأطاح بها، ثم تأهب لضرب الكرة. لقد كان الغولف هو هوايته الوحيدة وكان كل أمله في الحياة أن يتفوق في هذه اللعبة ويصبح من محترفيها، وكان أبغض شيء إليه وهو في الرابعة والعشرين من عمره أن يجد نفسه مضطراً إلى كسب رزقه بالعمل خمسة أيام ونصفاً كل أسبوع في مكتب كالسجن في وسط المدينة وأنه لا يستطيع ممارسة اللعبة التي يعدّها عمله الحقيقي ومناط حياته ومستقبله إلا عصر السبت ويوم الأحد من كل أسبوع.

ولهذا استأجر غرفة في فندق صغير بالقرب من ساحة ستورتون كي يتمرن على لعب الغولف ساعة على الأقل كل صباح قبل أن يستقل قطار الساعة الثامنة إلى لندن، ولكن شيئاً واحداً كان يفسد هذا البرنامج في بعض الأحيان، وهو قطرات الندى التي تبلل الأرض والعشب وتجعل الكرة تنزلق في غير الاتجاه المطلوب، ولكنه لم يستطِع شيئاً حيال الندى.

ضمّ قدميه وأمسك بالمضرب جيداً وقال لنفسه مردداً إحدى القواعد الأساسية في اللعبة: انظر إلى الكرة جيداً ولا ترفع رأسك إلا بعد أن تضربها.

ورفع المضرب، ثم توقف عن الحركة وجمد في مكانه،

فقد سمع صرخة ثانية مزقت سكون الصباح الباكر، وصوتاً يصيح: سأُقتل، النجدة، النجدة!

كان صوت امرأة، وقد انتهى بآهة عميقة ثم صمت. فألقى جاك المضرب وانطلق يعدو صوب المكان الذي خُيل إليه أن الصوت قد انبعث منه. كان واثقاً من أن الاستغاثة قد صدرت من مكان قريب، ولم تكن هناك سوى بضعة بيوت متفرقة تقع بين ساحة الغولف والغابة، وكان أقرب هذه البيوت إليه كوخاً صغيراً طالما لفت نظره بطرازه القديم وحسن تنسيقه وجمال موقعه وسط حديقة حافلة بالزهور، فانطلق يعدو نحو هذا الكوخ.

كان هناك مرتفع من الأرض مغطّى بأشجار العوسج يحجب جانباً من الكوخ، فدار جاك حوله، وما هي إلا لحظة حتى وجد نفسه أمام الباب. ورأى فتاة في الحديقة فتبادر إلى ذهنه لأول وهلة أنها صاحبة الاستغاثة ولكنه سرعان ما نبذ هذه الفكرة، فقد رأى في يد الفتاة سلة مليئة إلى نصفها بالأعشاب، فأدرك أنها تقوم بتطهير الحديقة من الأعشاب الطفيلية.

رمقته الفتاة بنظرة يمتزج فيها الانزعاج بالدهشة، ولاحظ جاك أن عينيها أقرب إلى لون البنفسج منها إلى زرقة السماء، ثم سألها: معذرة يا آنسة، ولكن هل سمعتِ صيحة استغاثة منذ لحظة؟

- أنا؟ لا.

وكانت دهشتها حقيقية إلى حدّ جعله يشعر بالارتباك، وكان صوتها رقيقاً عذباً وفي لهجتها لكنة أجنبية فقال: لا بد أنكِ سمعتِها، فقد صدرت من مكان في هذه المنطقة.

فحملقت في وجهه لحظة ثم ردّت بهدوء: أنا لم أسمع شيئاً على الإطلاق.

يستحيل ألاّ تكون قد سمعَت صرخة الاستغاثة، ولكن هذا الهدوء وهذا الثبات لا يدعان مجالاً للشك في صدقها، فقال : لقد صدرت الاستغاثة من مكان قريب من هنا.

فسألته: ماذا كانت ألفاظها؟

- سأُقتل. النجدة، النجدة.

فقالت: لا بد أنها دعابة يا سيدي، فمن الذي يمكن أن يُقتل هنا.

نظر الشاب حوله في ارتباك كما لو كان يبحث بين ممرات الحديقة عن جثة مسجّاة، ولكنه كان واثقاً من أن الاستغاثة التي سمعها حقيقة وليست من صنع الخيال، ثم حوّل عينيه إلى نوافذ الكوخ ولكن كل شيء كان يبدو هادئاً وطبيعياً، فقالت الفتاة: هل تريد أن تفتش الكوخ؟

وكان في صوتها شيء من التهكم في هذه المرة، فازداد ارتباك جاك هارتنغتون وقال: أنا آسف، لا بد أن تكون الاستغاثة قد صدرت من مكان آخر بعيد، ربما من الغابة.

ثم رفع قبعته محيياً وقفل راجعاً من حيث أتى. وحين ابتعد قليلاً نظر من فوق كتفه فرأى الفتاة تعود إلى عملها وتستأنف تطهير الحديقة من الأعشاب. ثم خطر له أن يبحث في اتجاه آخر، فتوغّل في الغابة ولكنه لم يجد أيّ أثر يدلّ على حدوث أيّ شيء غير عادي، ومع ذلك فقد ظلّ على يقينه من أنه سمع

الاستغاثة ولا توجد قوة على الأرض تستطيع أن تقنعه بغير ذلك. وفي النهاية عدل عن البحث والتفكير في الأمر وعاد أدراجه إلى غرفته في الفندق حيث تناول إفطاره ثم لحق بالقطار في آخر لحظة كالعادة.

لم يكَد يستقر على مقعده في العربة حتى بدأ يشعر بوخز الضمير؛ ألم يكن من واجبه أن يتصل برجال الشرطة فوراً ويحدّثهم عن الاستغاثة التي سمعها؟ لكنه لم يفعل ذلك بسبب الفتاة ذات العينين البنفسجيتين التي لم تصدّقه، ولعلها ظنت أنه اخترع تلك القصة ليجاذبها أطراف الحديث ويغازلها، ومن يدري؟ فقد يظن رجال الشرطة ذلك أيضاً، ولكن هل هو واثق تماماً من أنه سمع صيحة استغاثة؟

وعندما وصل به القطار إلى لندن كانت ثقته في صدق حواسه قد بدأت تتزعزع فراح يتساءل: ألا يمكن أن يكون ما سمعه هو صرخة طير بعيد فصور له الوهم أنها صيحة امرأة؟ ولكن ما سمعه كان صوت امرأة، ما في ذلك شك، وتذكّر أنه نظر إلى ساعته قبل أن يسمع صيحة الاستغاثة مباشرة وأن الساعة وقتئذ كانت السابعة وعشرين دقيقة، فتلك الحقيقة قد تُفيد رجال الشرطة إذا ما اكتشفوا الجريمة.

وعندما عاد إلى غرفته في المساء تصفح جرائد المساء باهتمام وقلق على أمل أن يجد فيها إشارة إلى جريمة ارتُكبت، ولكنه لم يجد شيئاً. ولم يدرِ هل يجب أن يشعر بالارتياح أم بخيبة الأمل.

وهطلت الأمطار خلال الليل وبللت العشب، فاضطُر جاك

إلى العدول عن ممارسة هوايته في صباح اليوم التالي ولم يغادر فراشه إلا في آخر لحظة، فالتهم طعام الإفطار بسرعة واستقل القطار إلى لندن، وما إن تحرك القطار حتى شرع في تصفّح الجرائد باهتمام بالغ، ولكنه لم يجد أية إشارة إلى الجريمة، وكذلك لم تشر إليها صحف المساء فقال لنفسه: هذا غريب! إذن لا بد أن بعض الصبية كانوا يلعبون في الغابة.

ونهض مبكراً في صباح اليوم التالي فمر بالكوخ ونظر إليه من مؤخرة عينه، فرأى الفتاة تقتلع الأعشاب من الحديقة كما كانت تفعل في اليوم الأسبق، ورجّح أن تكون هذه عادتها كل صباح. ثم رفع يده بالمضرب وهوى بها على الكرة فانطلقت الكرة في الاتجاه الذي أراده، وأسرع خلفها وهو يأمل أن تكون الفتاة قد أبصرت به، ثم نظر إلى ساعته وتمتم قائلاً: الساعة السابعة وعشرون دقيقة تماماً، تُرى هل...

وتجمدت الكلمات على شفتيه، ففي تلك اللحظة دوت من ورائه نفس الصرخة التي أفزعته قبل يومين، صرخة الاستغاثة من امرأة في مأزق رهيب وبنفس الألفاظ: سأُقتل، النجدة، النجدة!

فدار على عقبيه وعاد أدراجه ركضاً وبأقصى سرعة، فوجد الفتاة واقفة بباب الحديقة، وبدت الدهشة على وجه الفتاة حين رأته فصاح بها وفي صوته رنة فوز: لا بد أنكِ سمعتها هذه المرة.

فحملقت فيه وفي عينيها نظرة لم يفهم معناها، ولكنه لاحظ أنها تراجعت عندما اقترب منها، بل ونظرت خلفها إلى الكوخ

كأنما خطر لها أن تهرب إليه وتلوذ به، وأخيراً هزّت كتفيها وقالت وهي تتفرس وجهه: لا، لم أسمع شيئاً.

فشعر كأنه تلقى ضربة بين عينيه، فقد كان صدقها من الوضوح بحيث لم يستطِع الارتياب فيها. ولكن كيف يمكن هذا؟! ثم قالت له بلطف وبصوت ينمّ عن العطف: هل أُصبت بصدمة عصبية في الحرب؟

وهنا فقط فهم سر خوفها ونظرتها إلى الكوخ، لا بد أنها ظنته مصاباً بنوع من الخبل. وفجأة خطر له خاطر غريب جعل الدم يجمد في عروقه. ماذا لو كانت الفتاة على حق وكان هو مصاباً بخبل؟! وتجسد هذا الخاطر في ذهنه وأذهله عن كل شيء فتحوّل عن الفتاة دون أن ينطق بكلمة ثم مضى في طريقه وهو يترنّح.

شيّعته الفتاة ببصرها ثم هزت رأسها وتنهّدت وعادت إلى عملها في الحديقة، وحاول جاك أن يحسم الأمر مع نفسه بطريقة منطقية فقال يحدث نفسه: إذا سمعتُ هذه الاستغاثة اللعينة مرة أخرى في الساعة السابعة والدقيقة العشرين كان ذلك دليلاً كافياً على أنني مصاب بنوع من الهوس، ولكنني واثق من أنني لن أسمعها بعد الآن.

ولازمه الضيق وتوتر الأعصاب طَوال ذلك اليوم، وأوى إلى فراشه في وقت مبكّر، عقد العزم على أن يضع الأمر موضع التجربة في الصباح. وكان من الطبيعي في مثل هذه الحالة أن يستولي عليه الأرق شطراً كبيراً من الليل، ثم أنهكه التعب والتفكير آخر الأمر فاستغرق في النوم.

وكانت الساعة قد قاربت السابعة والربع من صباح اليوم التالي حينما غادر الفندق وانطلق يعدو في الساحة، وكان واثقاً من أنه لن يصل في الوقت المحدد إلى البقعة المشؤومة التي تعوّد أن يسمع فيها صوت الاستغاثة، ولكن إذا كان هذا الصوت ضرباً من الوهم والهلوسة حقاً فلا بدّ أنه سيسمعه في أيّ مكان. واصل الركض وعيناه لا تتحولان عن عقربَي الساعة، وما إن أزفت الدقيقة العشرون بعد السابعة حتى سمع صدى صوت استغاثة، ولم يتبيّن الألفاظ ولكنه كان واثقاً من أنه نفس الصوت وأنه صادر من نفس المكان في المنطقة المحيطة بالكوخ.

ولم يزعجه ذلك بقدر ما أشعر بالطمأنينة والارتياح، ولا بد أن في الأمر خدعة كما قالت الفتاة. ومن يدري؟ فقد تكون الفتاة نفسها هي صاحبة الخدعة. ثم كفّ عن الركض وتناول المضرب وراح يمارس تدريبه اليوميّ كأن شيئاً لم يحدث. وكانت الفتاة في الحديقة كالعادة ولكنها كانت تنظر إليه على غير العادة، فرفع قبعته وحيّاها بخجل، وخُيل إليه أنها اليوم أجمل مما رآها في أيّ يوم سابق. ثم جعل يقذف بالكرة نحو الثقوب التي تعوّد استخدامها إلى أن اقترب من الكوخ ثم قال لها وهو يصطنع المرح: يوم مشرق، أليس كذلك؟

- بلى، هذا يوم جميل كأيام الربيع.

- أظن أن هذا الطقس ملائم لزهور الحديقة، أليس كذلك؟

فابتسمت الفتاة ثم قالت: لا، مع الأسف، لأن زهوري بحاجة إلى المطر. انظر إليها، فهي تكاد أن تذبل.

فاقترب جاك من سور الحديقة ونظر إلى الزهور وقال: بل هي متفتحة ولم تذبل.

وكان يشعر طَوال الوقت بأن عينَي الفتاة تنظران إليه بإشفاق، ثم قالت: الشمس مفيدة على كل حال ولكنها تقتل هذا النوع من الزهور، بالرغم من أنها تمنح الإنسان الصحة والقوة. أنت تبدو اليوم أوفر صحة مما كنتَ عليه بالأمس يا سيدي.

فضايقته لهجتها التي تنطوي على التشجيع وقال لنفسه: لعلها تحاول معالجتي بالإيحاء.

قال: أنا بصحة جيدة والحمد لله.

فقالت بسرعة: يسرّني أن أسمع ذلك.

وأحس جاك بأنها لم تصدّقه فزاده ذلك ضيقاً وقلقاً، وبعد أن لعب الغولف بضع دقائق أخرى عاد أدراجه إلى الفندق ليتناول فطوره، وقد لاحظ في قاعة الطعام أن الرجل الذي يجلس أمام المائدة المجاورة ينظر إليه خلسة بين الفينة والفينة، ولم تكن هذه أول مرة يفعل فيها الرجل ذلك فقد لاحظ جاك نظراته إليه في الأيام السابقة ولكنه لم يُعِرها اهتماماً. كان الرجل في الحلقة الرابعة من عمره له عينان سوداوان ثاقبتان ولحية سوداء صغيرة ووجه تنم قسماته عن الصلابة وقوة الإرادة، كما كانت حركاته المتأنّية تدلّ على الثبات والثقة بالنفس، وقد علم جاك أنه يُدعى لافنغتون وأنه من كبار الأطباء الأخصائيين، ولكنه لم يهتم بمعرفة مجال تخصصه. ولكن إصرار الرجل على التفرّس في وجهه في ذلك اليوم أشعره بشيء من الخوف. تُرى هل كان سره مكتوباً على وجهه ليقرأه الجميع؟ وهل أدرك هذا الرجل

بحكم مهنته أن في عقله خبلاً؟

مرت بجسده رعدة! أيمكن حقاً أن يكون على حافّة الجنون؟ وهل ما حدث له في الأيام الأخيرة كان هوَساً وهلوسة أم مجرد مزحة؟ وفجأة خطرت له فكرة بسيطة من شأنها أن تساعده على أن يعرف الحقيقة ويقطع الشك باليقين. لقد كان يسير بمفرده في ساحة الغولف دائماً، ولكن هب أنه اصطحب معه شخصاً آخر فستكون النتيجة أحد أمور ثلاثة: إما أن يصمت صوت الاستغاثة، أو ينبعث فيسمعانه معاً، أو ينبعث فيسمعه هو وحده.

وفي المساء شرع بتنفيذ فكرته، وكان لافنغتون هو الشخص الذي وقع عليه اختياره. ولم يجد جاك أية صعوبة في استدراج لافنغتون إلى الحديث، فلعلّ لافنغتون نفسه كان يتوق إلى التحدث إليه فقد كان واضحاً أنه يهتم به لأمر ما، ولم يلبث جاك أن اقترح عليه أن يلعبا الغولف قبل الإفطار وتم الاتفاق على أن يكون ذلك في اليوم التالي.

وكان الجو في اليوم التالي صحواً والسماء صافية، فغادرا الفندق قبل الساعة السابعة، ولعب لافنغتون ببراعة أما جاك فكان مضطرباً شارد الذهن، وزاد اضطرابه مع اقتراب ساعة الحسم وكان ينظر إلى ساعته بين لحظة وأخرى، وحينما وصلا إلى الثقب القريب من الكوخ كانت الساعة قد بلغت السابعة والربع، وكانت الفتاة في الحديقة كالمعتاد ولكنها لم تنظر إليهما ولم تُعِرهما اهتماماً.

استقرت كرة جاك بالقرب من الثقب في حين تدحرجت

كرة الدكتور بعيداً عنه، فانحنى الدكتور فوق الكرة وراح يقيس بنظره المسافة بينها وبين الثقب لكي يودِعها فيه بالضربة التالية، أما جاك فقد وقف جامداً في مكانه وقد تعلّقت عيناه بعقربَي الساعة. كانت الساعة وقتئذ السابعة وعشرين دقيقة تماماً، وضرب الدكتور الكرة برفق فتدحرجت وتوقفت على حافة الثقب ثم سقطت فيه، فصاح جاك بصوت أجش خُيل إليه أنه ليس صوته: أحسنت.

ثم حول عينيه عن الساعة وتنهد بارتياح، فقد مرّت اللحظة الحرجة دون أن يحدث شيء، ثم قال يحدّث الطبيب: هل لديك مانع من أن نتريث قليلاً ريثما أحشو غليوني؟

وحشا غليونه وأشعله بأصابع ترتجف، وكان يشعر كأن عبئاً ثقيلاً قد أُزيح عن صدره، ثم قال: ما أجمل هذا اليوم! العب يا لافنغتون فهذا دورك.

وفي اللحظة التي هوى فيها الطبيب بالمضرب على الكرة دوى صوت الاستغاثة عالياً مخيفاً: سأُقتل، النجدة، النجدة!

فانثنى جاك نحو مصدر الصوت بسرعة وسقط الغليون من يده المرتجفة، ثم تذكّر الغرض من اصطحاب لافنغتون فنظر إليه وقد تقطعت أنفاسه، ووضع لافنغتون يده فوق جبينه ليحجب الشمس عن عينيه وقال وهو يتابع الكرة ببصره: أظن أن الكرة قد تجاوزت الثقب كثيراً.

ولكنه لم يسمع جواباً، فقد أحس جاك بالدنيا تدور حوله، فخطا خطوة أو خطوتين وهو يترنح ثم سقط على الأرض. وعندما فتح جاك عينيه وجد نفسه ممدَّداً على العشب ولافنغتون

ينظر إليه بقلق، فتمتم قائلاً: ماذا حدث؟

- لقد أُغمي عليك أيها الشابّ.

فتأوه جاك بألم وهتف: يا إلهي!

- ما بك؟ هل ثمة ما يزعجك؟

- سأروي لك كل شيء، ولكن هل تسمح لي أولاً بأن ألقي عليك سؤالاً؟

فأشعل الدكتور غليونه وقال بهدوء: ألقِ ما شئت من الأسئلة؟

- لقد كنتَ تراقبني في الأيام الأخيرة، فلماذا؟

فتألقت عينا لافنغتون وأجاب وهو يبتسم: هذا سؤال محرج، ولكن القطة تستطع أن تنظر إلى الملك كما تعلم.

- لا تحاول التخلص من الإجابة، فأنا جادّ وأريد أن أعرف لماذا كنت تراقبني؟ هناك سبب جوهري لهذا السؤال.

فارتسمت على وجه الدكتور مسحة من الجد وقال: سأجيبك بصراحة، لقد لاحظتُ عليك جميع الأعراض التي تبدو على رجل أعصابه في أشد حالات التوتر، وكنت أسائل نفسي: تُرى ماذا عساه يكون سبب هذا التوتر الشديد؟

فقال جاك بمرارة: سأذكر لك السبب. أنا في طريقي إلى الجنون.

وصمت فلاحظ أن تصريحه لم يُثِر الاهتمام المتوقع، فقال مرة أخرى: قلت لك إنني في طريقي إلى الجنون.

فتمتم لافنغتون: هذا غريب حقاً.

- يبدو أن الأمر لا يثير اهتمامك، ولكن ذلك شأنكم جميعاً أيها الأطباء، تنظرون إلى متاعب الناس بكل هدوء وبرود.

- أنت ترسل الكلام بغير روية يا صديقي الشاب؛ فأنا أولاً لا أمارس الطب رغم أنني مؤهَّل، ثم إنني لستُ طبيباً بالمعنى المعروف، أعني أنني لست طبيب أجسام.

نظر إليه جاك بحدة وقال: طبيب عقول إذن؟

- إلى حد ما، فأنا أصف نفسي بأنني طبيب أرواح.

- حقاً؟

- أصغ أيها الشاب. أنا أتبيّن في صورتك رنة السخرية، ولكن هناك عاملاً فعّالاً مستقلاً عن الجسم تماماً ويجب أن يكون له اسم. بعض الناس يسمونه النفس أو الروح والبعض يقولون إنه العقل فحسب والبعض يزعمون أنه العقل الباطن، وفي استطاعتك أنت أن تطلق عليه أيّ اسم تشاء. لقد شعرتَ بالاستياء منذ لحظة لأنني قابلتُ تصريحك عن حالتك العقلية بعدم الاكتراث، ولكنني في الواقع كنت مشدوهاً لأنني لم أفهم كيف يتصور شاب مثلك كل تصرفاته طبيعية وتتسم بالاتزان أنه يوشك أن يفقد عقله.

فقال جاك بإصرار: بل أنا مجنون فعلاً.

- أرجو المعذرة، ولكنني لا أستطيع أن أصدقك.

- أنا أتوهم أشياء لا وجود لها.

- هل يحدث ذلك بعد الغداء؟

- لا، في الصباح.

فأعاد الطبيب إشعال غليونه الذي انطفأ وقال: لا أظن ذلك.

- صدقني، أنا أسمع أشياء لا يسمعها سواي.

- إذا كان هناك رجل واحد من بين ألف رجل استطاع أن يرى القمر بينما لم يستطع الآخرون ذلك فهذا ليس معناه أن القمر غير موجود أو أن هذا الرجل مجنون.

سُرّي عن جاك وشعر بالارتياح إلى حديث الدكتور الذي كان يراقبه، فرأى التحول الذي طرأ عليه وقال: هذا أفضل، والآن دعنا نتحدث عن الأسباب التي حملتك على الاعتقاد بأنك في طريقك إلى الجنون قبل أن نقرر ما إذا كان ينبغي إرسالك إلى مصحة للأمراض العقلية أم لا.

فروى له جاك بدقّة وأمانة قصة صرخات الاستغاثة، ثم ختم حديثه بقوله: ولكن الشيء الذي لا أستطيع أن أفهمه هو سبب تأخّر الاستغاثة اليوم عن موعدها المعتاد بخمس دقائق!

ففكّر لافنغتون قليلاً ثم سأل: كم ساعتك الآن؟

فنظر جاك إلى ساعته وأجاب: الثامنة إلا الربع.

- الأمر إذن في غاية البساطة؛ فساعتي الآن الثامنة إلاّ عشر دقائق، وهذا معناه أن ساعتك متأخرة خمس دقائق، وهذه حقيقة مهمة جداً.

فقال جاك وقد استبدّ به الفضول: كيف؟

- ظاهرة صوت الاستغاثة يمكن تفسيرها على النحو التالي: لقد سمعتَ هذا الصوت حقيقة في اليوم الأول، ولعله صدر من أشخاص يمزحون، ولكنك في اليوم التالي أوهمتَ نفسك بأنك سمعتَ نفس الصوت في نفس اللحظة.

- أنا لم أوهم نفسي بشيء.

- أنت لم تشعر بذلك، فمثل هذه الأوهام والإيحاءات تصدر عادة عن العقل الباطن، وعلى كل حال هذا التفسير لا يفي بالغرض، فلو كان الأمر مجرد إيحاء أو إيهام للنفس لسمعتَ صوت الاستغاثة في الساعة السابعة والدقيقة العشرين وفقاً لساعتك ولن سمعته قط بعد فوات هذا الموعد.

- إذن...

- الأمر واضح فيما أعتقد، فصرخة الاستغاثة لها مكان وزمان محددان، فأما الزمان فهو الساعة السابعة والدقيقة العشرين، وأما المكان فهو المنطقة المحيطة بالكوخ.

- ولكن لماذا أنا الشخص الوحيد الذي قُدر له أن يسمعها؟ أنا لا أؤمن بالأشباح والأرواح وغير ذلك من الخرافات.

- بعض الناس يرون ويسمعون أشياء لا يراها ولا يسمعها الآخَرون، ونحن لا نعلم السبب. وتسعة أعشار هؤلاء الناس لا يريدون رؤية أو سماع تلك الأشياء ويعتقدون أن ما يرونه ويسمعونه هو مجرد وهم كما هو الحال معك. هذه الظاهر تشبه بعض الحقائق المتصلة بالكهرباء، فهناك مواد موصّلة

للكهرباء ومواد غير موصّلة لها، وقد ظللنا وقتاً طويلاً نجهل الأسباب واضطُررنا إلى قبول هذه الحقيقة على علاّتها ولكننا الآن نعرف الأسباب، ولا شك أن يوماً ما سوف يأتي نعرف فيه لماذا تسمع أنت أشياء لم أسمعها أنا ولم تسمعها الفتاة، فكل شيء تحكمه قوانين الطبيعة كما تعلم ولا توجد في الواقع أشياء خارقة للطبيعة، ولا شك أن اكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر النفسية سيكون أمراً شاقّاً وعسيراً، ولكنها ستُكتشف على كل حال إن عاجلاً أو آجلاً.

فسأله جاك: ولكن ماذا أفعل أنا الآن؟

فضحك لافنغتون وأجاب: أرى أنك شاب عملي. أصغ إليّ يا صديقي العزيز، ما يجب عليك عمله الآن هو أن تتناول إفطاراً شهياً ثم تنطلق إلى عملك دون أن تُتعب ذهنك بالتفكير في أمور لا تفهمها، أما أنا فسأتولى الموضوع نيابة عنك وأقوم ببعض التحريات في منطقة الكوخ التي أعتقد أنها مفتاح السر.

فردّ جاك بهدوء: حسناً يا سيدي، سأذهب الآن ولكنني أود أن أقول...

فقال لافنغتون: ماذا؟

فاحمرّ وجه جاك وقال بخجل: أنا واثق أن الفتاة لا علاقة لها بالموضوع.

فابتسم لافنغتون وقال: أنت لم تقُل لي إنها على هذا القدر من الجمال.

* * *

عاد جاك إلى الفندق في المساء وهو يتحرق شوقاً وفضولاً إلى معرفة نتيجة الأبحاث التي قام بها لافنغتون، وكان قد اطمأن إليه ووثق به ثقة عمياء بعد أن رآه يعالج الموقف بهدوء وبطريقة منطقية. وقد وجده بانتظاره في بهو الفندق، فاقترح الطبيب أن يتناولا طعام العشاء على مائدة واحدة، وهناك سأله جاك بشوق: هل لديك أنباء يا سيدي؟

- لقد عرفتُ الكثير عن الكوخ، فهم يطلقون عليه اسم كوخ هيذر، وكان في وقت ما مؤجراً لبستاني عجوز وزوجته ولما مات البستاني ذهبت زوجته للإقامة مع ابنتها، ثم انتقلت ملكية الكوخ إلى أحد المقاولين فادخل عليه تعديلات جوهرية وجعل منه مسكناً عصرياً جميلاً، ثم باعه إلى رجل أعمال في لندن. كان رجل الأعمال يقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع، ومنذ عام عرض رجل الأعمال الكوخ للبيع فاشتراه رجل يُدعى ترنر أقام فيه مع زوجته، وكان ترنر إنكليزياً أما زوجته فكانت روسية على جانب كبير من الجمال، وعاش الزوجان في الكوخ حياة هادئة بمعزل عن الناس فلم يزوروا أحد ولم يزُرهما أحد، وقلما كانا يغادران الكوخ إلى أبعد من الحديقة، وقالت الشائعات إنهما يخشيان شيئاً ولكننا لا يجب أن نعوّل على ما تردده الشائعات.

وصمت قليلاً وهو يتفرس في ملامح رفيقه ثم قال: ثم حدث ذات يوم أنهما رحلا فجأة في ساعة مبكرة من الصباح ولم يعودا إلى الكوخ، وبعد بضعة أيام تسلّم أحد السماسرة رسالة من السيد ترنر طلب منه فيها أن يبيع الكوخ بأسرع ما يمكن، فباع السمسار الأثاث ثم باع الكوخ لرجل يدعى مولفيرر، وأقام المشتري في الكوخ نحو أسبوعين فقط ثم عرضه للإيجار، ومنذ

عشرة أيام استأجره سكانه الحاليّون، وهم أستاذ فرنسي مصاب بالسل الرئوي وابنته الحسناء التي رأيتَها في الحديقة.

أصغى جاك إلى حديث الطبيب صامتاً ثم قال: هذه القصة لا تقدّم ولا تؤخّر في موضوعنا، فما رأيك أنت؟

فأجاب لافنغتون بهدوء: لقد أردت أن أعرف المزيد عن ترنر وزوجته، فقيل لي إنهما رحلا في ساعة مبكرة ولم يرَهما أحد حين رحلا، وكذلك قيل لي إن السيد ترنر شوهد بعد ذلك في لندن أما الزوجة فلم يرَها أحد.

فامتقع وجه جاك وقال: هل تعني أن...؟

- لا تنفعل يا صديقي، فالشخص الذي يموت ميتة عنيفة يؤثر في الأشياء التي تحيط به تأثيراً قوياً وغريباً، وهذه الأشياء قد تمتصّ التأثير لتنقله بدورها إلى مستقبِل آخر على استعداد للتأثر به، والمستقبل في الحالة التي نحن بصددها الآن هو أنت.

فقال جاك بحنق وإصرار: ولكن لماذا أنا؟! لماذا لا ينتقل التأثير إلى شخص آخر أصلح مني؟

تمتم لافنغتون: أنت تنظر إلى تلك القوى الغامضة كما لو كان لها ذكاء وهدف في حين هي في الواقع قوى عمياء وآلية، وأنا شخصياً لا أؤمن بالأرواح التي ترتاد مكاناً بعينه لغرض معيَّن، ولكن الشيء الذي رأيته المرة تلو المرة حتى اقتنعت بأنه لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفات هو تلك القوى العمياء التي تتحرك في الظلام من اتجاهات مختلفة إلى هدف واحد، هو تحقيق نوع من العدالة أو تنفيذ نوع من القصاص.

قال ذلك وتنهد، ثم هز رأسه بشدة كأنما يتخلص من خاطر يُلِحّ عليه، ثم التفت إلى جاك وقال وهو يبتسم: دعنا من هذا الموضوع الآن، دعنا منه الليلة على الأقل.

فوافق جاك على كره منه، فقد كان ذلك الموضوع هو شغله الشاغل.

وفي عطلة نهاية الأسبوع قام جاك ببعض التحريات الخاصة لإماطة اللثام عن السر فلم يتوصل إلى شيء من المعلومات أكثر مما توصل إليه الدكتور، غير أنه كان قد كفّ نهائياً بعد الحادث الأخير عن لعب الغولف قبل الإفطار.

* * *

جاءت الحلقة التالية في السلسلة من مصدر غير متوقَّع، فقد رجع جاك إلى فندقه ذات يوم فقيل له إن فتاة تنتظره وتريد مقابلته، وكانت دهشته شديدة حين وجد أن الزائرة هي فتاة الكوخ، وكانت بادية الاضطراب والارتباك فبادرته بقولها: معذرة يا سيدي لتطفلي عليك، ولكن هناك أشياء أريد أن أخبرك بها، وهي أنني...

ونظرت حولها بقلق ففهم غرضها وقال: لتأتي معي.

ثم قادها إلى قاعة الاستقبال التي كانت خالية في تلك اللحظة، فأشار إلى أحد المقاعد وقال: تفضلي بالجلوس يا آنسة...

- فيليس مارشو.

- تفضلي بالجلوس يا آنسة مارشو وتكلمي بلا حرج.

فأطاعت الفتاة وجلست. كانت ترتدي ثوباً أخضر داكناً أبرز جمال وجهها وانعكس لونه على عينيها الفاتنتين، فشعر جاك بقلبه ينبض بسرعة وهو يجلس بجوارها، ثم تكلمت الفتاة فقالت بتلك اللكنة الأجنبية المحبَّبة دون أن تتحرج من الاستعانة ببعض الألفاظ الفرنسية التي لا تعرف ما يقابلها بالإنكليزية: سأبدأ من البداية يا سيدي. لقد استأجرنا ذلك الكوخ منذ فترة قصيرة وسمعنا منذ اليوم الأول أنه مسكون، ولم نجد خادمة أو خادماً يرضى بالإقامة معنا فيه، ولكن ذلك لا يهم فأنا أطهو الطعام بنفسي وأدير شؤون البيت بسهولة. كل ما يقال عن الأشباح والأرواح حديث خرافة، أو أن هذا ما كنتُ أعتقده قبل أربعة أيام، فقد رأيتُ فيما يرى النائم خلال أربع ليال متوالية حلماً واحداً لا يتغير، وهو سيدة طويلة شقراء على جانب كبير من الجمال تحمل بين يديها جرة زرقاء اللون تنظر إليّ بحزن وتقدم إليّ الجرّة وكأنها تهيب بي أن أفعل شيئاً به، ولكنها لا تتكلم ولا تُفصِح عمّا تريد. وقد تكرر هذا الحلم ليلتين متواليتين، وفي الليلة الثالثة ما إن تلاشت صورة السيدة والجرّة حتى سمعت صرخة رهيبة وصوتاً لا شك أنه صوت السيدة، كانت تصيح: "سأُقتل، النجدة، النجدة"! وهي نفس الاستغاثة التي سمعتَها أنت وحدثتَني عنها منذ أيام، فاستيقظتُ من نومي مذعورة وقلت لنفسي إن هذا كابوس والاستغاثة مجرد مصادفة، ولكن هذا الحلم الرهيب تكرر مرة أخرى ليلة أمس، فما معنى ذلك يا سيدي؟ أنت أيضاً سمعتَ هذه الاستغاثة، فماذا يجب أن نفعل؟

وكان الذعر واضحاً على وجهها وهي تنظر إلى جاك في توسل، وتظاهر جاك بقلة اكتراث لم يكُن يشعر بها حقاً، ثم

أجاب: هدّئي من روعك يا آنسة مارشو ولا تنزعجي، سأقول لكِ ماذا ينبغي عمله. أنا أريدك أن تروي تلك القصة بحذافيرها لصديق لي يقيم في هذا الفندق، وهو الدكتور لافنغتون.

فوافقت فيليس بعد تردد قصير، وانطلق جاك للبحث عن لافنغتون فوجده في غرفته، فرافقه إلى قاعة الاستقبال وقدّمه إلى فيليس، وتفرّس الطبيب في وجه الفتاة وابتسم لها مشجّعاً فروت له قصتها، وقد أصغى إليها باهتمام ثم هزّ رأسه وقال: قصة عجيبة حقاً! هل رويتِها لأبيك؟

- لا، فهو مريض جداً ولم أشأ إزعاجه.

وامتلأت عيناها الساحرتان بالدموع ثم استطردت قائلة: أنا أحجب عنه كل ما يثيره أو يضايقه.

فقال لافنغتون برفق: خيراً فعلت. لقد سرّني قدومك يا آنسة مارشو، وقد مرّ صديقي جاك بمثل تجربتك كما تعلمين، وفي استطاعتي الآن أن أقول إننا وضعنا أقدامنا على أول الطريق. هل لديك معلومات أخرى يا آنسة؟

فأجابت الفتاة بسرعة: نعم، نعم. ما أشدّ غبائي! لقد كدتُ أنسى أهم نقطة في الموضوع. انظر يا سيدي، لقد وجدت هذه خلف أحد الخزانات.

وأخرجت من حقيبتها ورقة قذرة عليها صورة بالألوان المائية تمثل امرأة طويلة شقراء توحي ملامحها بأنها ليست إنكليزية وبجوارها طاولة عليها إناء خزفي أزرق، ثم قالت الفتاة: لقد وجدت هذه الصورة صباح اليوم فقط يا دكتور، وهذا الوجه هو وجه السيدة التي رأيتُها في أحلامي وهذه هي

الجرة الزرقاء أيضاً.

فقال لافنغتون: عجباً! يُخيل إليّ أن هذه الجرة هي مفتاح السر، وأكبر الظن أنها صينية الصنع ويرجع تاريخها إلى عدة قرون.

فصاح جاك: أجل، صينيّة، فقد رأيت جرة مماثلة لها ضمن مجموعة عمّي من التحف والأواني الأثرية، فعمّي من كبار هواة جمع الخزف الصيني، وأنا أذكر أنني رأيتُ عنده جرة مثل هذه منذ فترة قصيرة.

فأطرق لافنغتون برأسه واستغرق في التفكير لحظة، ثم رفع رأسه بغتة فإذا في عينيه بريق غريب ثم قال: متى حصل عمك على هذه الجرة يا جاك؟

- الحق أنني لا أعلم.

- فكّر جيداً، هل اشتراها مؤخراً؟

- لا أعلم. آه، نعم، لقد تذكرت الآن، أنا شخصياً لا أهتم بالتحف والأواني الخزفية ولكنني أذكر أن عمي عرض عليّ آخر صفقاته وكانت الجرة بينها.

- هل حدث ذلك منذ نحو شهرين؟ فقد غادر السيد ترنر الكوخ منذ شهرين تقريباً.

- أعتقد ذلك.

- هل يشترك عمك في مزادات الضواحي؟

- عمي يشترك في جميع المزادات.

- إذن فنحن لا نخطئ كثيراً إذا افترضنا أن عمك قد اشترى الجرّة من المزاد الذي بيع فيه أثاث السيد ترنر. يا لها من مصادفة عجيبة! هذا ما أسمّيه بالقوى الخفية التي تتحرك في الظلام لتحقيق هدف معين. أصغ إليّ يا جاك، يجب أن تعرف من عمك في أقرب وقت ممكن كيف ومن أين اشتريت الجرة الزرقاء؟

ولكن جاك هزّ رأسه وأجاب: هذا مستحيل لأن عمي سافر إلى فرنسا ولا أعرف عنوانه كي أكتب إليه.

- وهل سيبقى هناك طويلاً؟

- ثلاثة أسابيع على الأقل.

فساد صمت عميق وراحت فيليس تنقل البصر بين الرجلين ثم قالت على استحياء: أليس هناك ما يمكن عمله؟

فقال لافنغتون بشيء من الحماسة: بل يوجد ما نستطيع عمله.

ثم التفت إلى جاك وقال: هو إجراء غير طبيعي، ولكنني أعتقد أنه سينجح. أصغ إليّ يا جاك، يجب أن تُحضر هذه الجرة بأية وسيلة إلى هنا، وإذا سمحَت الآنسة فسنقضي ليلة في الكوخ ومعنا الجرة.

فأحسّ جاك بقُشَعريرة تسري في جسده وسأل بقلق: ماذا تظنه سيحدث؟

ليست لدي أية فكرة، ولكنني أعتقد أننا سننجح في إماطة اللثام عن السر، ومن يدري؟ فقد يكون في قاع الجرة مخبأ سري يوصلنا إلى الحقيقة.

فهتفت فيليس وهي تضم يديها بانفعال: هذه فكرة رائعة.

وتألقت عيناها حماسة وسروراً، ولم يتحمس جاك للفكرة مثلها ولكنه أخفى شعوره حتى لا يصيبها باليأس وخيبة الأمل، ثم انثنت إليه الفتاة وسألته: متى يمكنك الحصول على الجرة الزرقاء؟

فصمت قليلاً ثم أجاب: غداً.

لم يكن مقتنعاً بالفكرة، ولكن تلك الصرخة المخيفة التي كانت تعكر صفو حياته لم يكن من السهل عليه نسيانها أو إهمالها، وقد كان على استعداد لأن يُقدِم على أيّ شيء ليعرف سرها ويتخلص منها.

في مساء اليوم التالي ذهب إلى بيت عمه وأخذ الجرة، ولم يكد يقع بصره عليها حتى ازداد اقتناعاً بأن الطبيب يسير في الطريق الصحيح، ذلك لأنها كانت مطابقة للصورة التي رآها، ولكنه ما إن فحصها حتى استبعد فكرة وجود مخبأ فيها.

* * *

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة حين وصل جاك ولافنغتون إلى الكوخ، وكانت فيليس تترقب قدومهما ففتحت الباب قبل أن يطرقاه ثم قالت لهما بصوت خافت: ادخلا، أبي نائم في الطابق الأول ولا يجب أن نوقظه وقد أعددت لكما القهوة هنا.

ثم قادتهما إلى قاعة استقبال صغيرة وقدمت إليهما أقداح القهوة، ولمّا فرغا من احتسائها أخرج جاك الجرة من اللفائف

التي أحاطها بها، ولم تكد فيليس تراها حتى شهقت دهشة وإعجاباً ثم هتفت قائلة: أجل، أجل، هذه هي، أنا أستطيع التعرف عليها في أيّ مكان؟

وفي تلك الأثناء كان لافنغتون يُعِدّ عدّته، فنقل إحدى الموائد الصغيرة إلى وسط الغرفة ووضع ثلاثة مقاعد حولها، ثم أخذ الجرة من يد جاك ووضعها في وسط المائدة وقال: ها نحن على أتمّ استعداد الآن، فلنطفئ الأنوار ونجلس حول المائدة في الظلام.

فأطفأت فيليس الأنوار وجلست على أحد المقاعد كما فعل جاك، ومرة أخرى تكلم لافنغتون، وانبعث صوته من الظلام وهو يقول: لا تفكّرا بشيء ولا تجهدا عقليكما، فقد يكون أحدنا صالحاً لأن يصبح وسيطاً، فإذا حدث ذلك لأحدنا فإنه سيجد نفسه في غيبوبة، ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف. اطرحا المخاوف واسترخيا، استرخيا.

وخفتَ صوته بالتدريج وتلاشى، وساد صمت عميق، ومرت الدقائق واستمر الهدوء، وكان هدوءاً مثقَلاً بالاحتمالات. لقد كان من السهل على لافنغتون أن يقول: "اطرحا المخاوف"، ولكن ما شعر به جاك لم يكن خوفاً بل كان ذعراً، وكان واثقاً من أن فيليس تشعر بمثل شعوره، وفجأة سمعها تقول بصوت خافت مرتجف: يُخيَّل إليّ أن شيئاً مخيفاً سيحدث.

فقال لافنغتون: اطرحا المخاوف ولا تقاوما القوى الخفية.

وخُيل لجاك أن الظلام يزداد شدة وأن السكون يزداد

حدة، فتملَّكَه شعور بأن خطراً مجهولاً يقترب خطوة فخطوة، ثم أحس بأنه يختنق وبأن الخطر المجهول يحلق فوق رأسه فحاول المقاومة، ولكنه لم يستطِع حراكاً، ثم مرّت لحظة النضال وخُيل إليه أنه ينحدر مع تيار جارف، فاستسلم وثقلت جفونه وهدأت نفسه وغاب في الظلام.

ثم تحرّك ببطء وشعر برأسه ثقيلاً ككتلة من الرصاص. أين هو؟ لقد رأى الشمس والطير والسماء وبدأ يتذكر، تذكّر الجلسة الغريبة في قاعة الاستقبال الصغيرة بالكوخ وتذكّر فيليس والطبيب. ماذا حدث بعد ذلك؟ ثم اعتدل جالساً ونظر حوله فوجد أنه كان ممدَّداً فوق العشب بالقرب من الكوخ وليس هناك أحد سواه. ونظر إلى ساعته، وكانت دهشته شديدة حين رأى عقربيها يشيران إلى الساعة الثانية عشرة والنصف، فنهض واقفاً وانطلق يعدو نحو الكوخ. لا بد أن الطبيب وفيليس قد استولى عليهما الخوف حين راح في غيبوبة فحملاه من الكوخ ومدَّداه على العشب في الهواء الطلق. وطرق باب الكوخ بشدة ولكنه لم يسمع جواباً ولم يشعر بحركة داخل الكوخ! لا بد أنهما ذهبا في طلب النجدة أو... وانخلع قلبه وتملكه خوف شديد. ترى ماذا حدث ليلة أمس؟!

عاد إلى الفندق بأقصى سرعة وهمّ بأن يسأل موظَّف الاستقبال عن الدكتور لافنغتون، ولكنه فوجئ بضربة قوية في جنبه كادت تطرحه أرضاً، وعندما استدار في غضب وقع بصره على رجل أشيب يضحك ملء شدقيه ويقول: لم تكن تتوقع قدومي، أليس كذلك يا فتى؟

- أهذا أنت يا عماه! لقد ظننت أنك سافرت إلى باريس.

- لقد كنت في باريس ولكنني وصلت إلى دوفر ليلة أمس، وعندما ركبتُ السيارة خطر لي أن أمرّ بك كي أراك قبل أن أواصل رحلتي إلى لندن. ولكن ماذا وجدت؟ وجدتك لا تزال منغمساً في حياة العبث، فقد قيل لي إنك قضيت ليلتك في الخارج.

فقال جاك بحزم: كفى، كفى يا عماه. لقد مررت بتجربة سأرويها لك، ولكنني واثق من أنك لن تصدقها.

ثم روى لعمه القصة من بدايتها وختمها بقوله: والله وحده يعلم ماذا حدث لهما.

ولكن العم كان على وشك أن يصاب بالفالج، ثم صاح بمجرد أن حُلت عقدة لسانه: والجرة، الجرة الزرقاء... ماذا كان مصيرها؟

فنظر إليه جاك في دهشة، ومن خلال العبارات المضطربة التي تدفقت من فم عمه بدأ يفهم، فهم أن الجرة الزرقاء هي أثمن قطعة في مجموعة عمه وأنها تحفة أثرية من عهد أسرة مينغ التي حكمت الصين طوال أربعة قرون وأنها الوحيدة من نوعها في العالم وأن المليونير الأمريكي هاغنهايمر كان على استعداد لشرائها بعشرة آلاف جنيه! ثم ختم العم محاضرته المحمومة بقوله: ماذا فعلت بجرّتي الزرقاء أيها الوغد؟

فأسرع جاك إلى موظّف الاستقبال وسأله عن الدكتور لافنغتون، فنظر إليه الموظّف بهدوء وقال: الدكتور لافنغتون غادر الفندق ورحل بسيارته مساء أمس وترك لك هذه الرسالة.

فتناول جاك الرسالة بيد ترتجف وفضّها. كانت رسالة

مقتضبة ولكنها في الصميم وقرأ فيها:

صديقي العزيز،

هل انتهى عصر الخرافات والشعوذة؟ لا أظن، خاصة إذا صُبغت الخرافات والشعوذة بأسلوب علمي حديث. لقد رحلنا منذ عشر ساعات، وأظن أن هذه مدة كافية فلا تحاول اللحاق بنا. فيليس تحييك وتبعث إليك أطيب التمنيات، وكذلك أبوها المريض وصديقك المخلص.

لافنغتون طبيب الأرواح.

* * *

نداء الأثير

قال الطبيب مندل باللهجة التي تعود أن يتحدث بها كل الأطباء: تَجنّبي أولاً وقبل كل شيء القلق والتوتر العصبي.

لم تطمئنّ السيدة هارتر لسماعها تلك العبارة بقدر ما ازدادت شكوكها، وأردف الطبيب يقول: يوجد بعض الضعف في القلب، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك عدم وجود مبرر للقلق، ولكنني أوصي في نفس الوقت بتركيب مصعد، ما رأيك في هذا؟

ازداد قلق السيدة هارتر في حين تزايد سرور الطبيب الذي كان يفضّل التعامل مع الأغنياء حتى يمارس هوايته المفضَّلة في وصف أكثر أشكال العلاج غرابة، وتابع الطبيب يقول: نعم، مصعد، حتى نتجنب أيّ لون من الإرهاق. كما أُوصي ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة وتجنّب صعود التلال، وأهم من ذلك كله الترويح الذهني، لا ترهقي صحتك.

كان الطبيب أكثر صراحة مع ابن أخيها تشارلز ريدجواي عندما انفرد به حيث قال له: لا تُسئ فهمي، قد تعيش عمتك أعواماً طويلة، وهذا هو المرجَّح، ولكنها أمام أيّ صدمة قد تنتهي في غمضة عين، لهذا يجب أن تحيا حياة هادئة دون إرهاق أو تعب ويجب أن توفّر لها جواً من المرح والتسلية.

همس تشارلز ريدجواي مفكّراً: التسلية؟

وكان تشارلز شابّاً ذا عقلية مفكرة ويؤمن في نفس الوقت بتنمية مواهبه كلما استطاع ذلك. واقترح في نفس المساء على عمته تركيب مذياع في المنزل، ورغم أن مزاج السيدة هارتر كان منحرفاً لفكرة المصعد فقد طاردها تشارلز بإلحاحه وقدرته على الإقناع، واعترضته عمته قائلة: أنا لا أكترث بهذه الاختراعات الحديثة... الموجات، أنت تعلم الموجات الكهربائية، ربما أثرت عليّ.

أخذ تشارلز يحبّذ تلك الفكرة إلاّ أنها ظلت على عدم اقتناعها وتمتمت تقول: الكهرباء! تستطيع أن تقول ما تريد يا تشارلز، إلا أن بعض الأشخاص يتأثرون بالكهرباء، كان الصداع ينتابني دائماً أمام العاصفة الرعدية.

إلا أنه لم ييأس وقال: عمتي العزيزة ماري، دعيني أزيد لك الأمر إيضاحاً.

كانت له خبرة في الموضوع الذي يتحدث عنه، وألقى عليها محاضرة طويلة مروّجاً للفكرة متحدثاً عن المفاتيح اللامعة والصمامات والذبذبات العالية والمنخفضة وتكبير الصوت المكثف، وأحست السيدة هارتر بأنها تغرق في سيل من الكلمات التي لا تفهمها فاضطُرت في النهاية إلى الموافقة قائلة: بالتأكيد، إذا كنت تعتقد ذلك.

- عمتي العزيزة ماري، هذا هو الشيء المناسب لك تماماً حتى يسلّيك ولا تشعري بالملل.

* * *

تم تركيب المصعد الذي أوصى به الطبيب بعد فترة وجيزة رغم أن السيدة هارتر كانت لا ترحّب بدخول أي رجل غريب إلى المنزل خوفاً على طقم أدوات المائدة الفضّي القديم، وسرعان ما أضيف إلى المنزل جهاز المذياع بمفاتيحه الكثيرة التي ظلت السيدة هارتر ترمقها بارتياب وتردد. أدار تشارلز مفتاح المذياع وعمته تنظر إلى الصندوق الضخم بعدم ارتياح، وقال الشاب: استمعي يا عمتي ماري، نحن الآن في برلين، أليس هذا رائعاً؟ ألا تسمعين صوت الفتى؟

- لا أسمع سوى أزيز مزعج.

استمر الشاب في إدارة المفاتيح ثم قال بحماسة: بروكسل.

وصاحت السيدة هارتر باستياء: يبدو أننا انتقلنا إلى بيت الكلاب.

قال تشارلز ضاحكاً: تستطيعين الآن أن تمزحي كما تشائين يا عمتي ماري، أليست هذه نتيجة طيبة؟

لم تستطع السيدة هارتر سوى الابتسام؛ فقد كانت مولَعة بابن أخيها. كانت تعيش معها قبل ذلك لسنوات ابنة أخ اسمها ميريام هارتر، وكان في نيّتها أن توصي بكل ثروتها لها، إلا أن ميريام فشلت في إرضائها؛ فقد كانت عصبية غير راضية عن الحياة التي تعيشها خالتها وكانت تكثر من الخروج، ثم تعرفت في النهاية على شاب. ولم ترضَ العمة عن تلك العلاقة فأعادت ابنةَ أخيها إلى أمها مع رسالة كأنها طرد من البضائع، وتزوجت ميريام الشاب الذي أحبته، وأرسلت لها عمتها علبة مناديل

ومنضدة صغيرة للشاي.

وعندما وجدت السيدة هارتر بنات الإخوة غير مناسبات اتجهت نحو أبناء الإخوة، وأحرز تشارلز نجاحاً منقطع النظير منذ قدومه للعيش مع عمته؛ فقد كان مرحاً يصغي باهتمام إلى كل كلمة تقولها عمته بعكس ميريام التي كانت تملّ الاستماع إلى حديث عمتها، وكان الشاب يكرر في اليوم الواحد قوله إن أحاديث عمته ممتعة لا يملّ الإنسان سماعها. وهكذا استطاع أن يكسب عطف عمته، وكتبت السيدة هارتر لمحاميها تعليمات لكي يغير الوصية، وأرسل المحامي الوصية الجديدة التي وقّعتها راضية.

* * *

أثبت تشارلز بالمذياع الذي أضافه إلى البيت أنه كسب أرضاً جديدة؛ فبعد الموقف الرافض للسيدة هارتر من الجهاز الجديد في البداية أصبحت مفتونة بالمذياع، وكانت تستمتع به خاصة عندما يكون تشارلز في الخارج؛ لأنه في أثناء وجوده لم يكن يترك مفاتيح الجهاز لحظة واحدة، أما عندما تكون العمة وحدها فهي تجلس في هدوء لتستمع إلى سيمفونية أو محاضرة وهي في قمة السعادة.

ثم وقع أول حادث بعد ثلاثة شهور من وصول الجهاز. كان الشاب خارج المنزل يلعب البريدج مع بعض أصدقائه، وبينما كانت السيدة هارتر تستمع إلى مغنية السوبرانو آني لوري توقّف الصوت فجأة مع استمرار الأزيز، ثم لم يلبث أن توقف الأزيز بدوره وخيّم الصمت التام، وأعقب ذلك بعض الأزيز الذي لم

تجد له السيدة هارتر تعليلاً، ثم طرق سمعَها صوتٌ واضح، صوت رجل يتحدث بلكنة إيرلندية يقول: ماري، هل تسمعين صوتي يا ماري؟ أنا باتريك، سوف آتي لزيارتك في القريب العاجل، هل ستكونين مستعدة لاستقبالي يا ماري؟

انقطع الصوت، وفجأة عادت أغنية آني لوري تدوّي في أرجاء الغرفة.

تسمرت السيدة هارتر في مكانها. هل كانت تحلم؟ باتريك! صوت باتريك! باتريك يتحدث إليها؟ لا شك أنها كانت تحلم، ربما كانت تهلوس، لا شك أنها غفت لمدة دقيقة أو دقيقتين. ولكن يا له من حلم أن تستمع إلى صوت زوجها من العالَم الآخر! ارتعدت قليلاً وهي تهمس لنفسها: ما الكلمات التي كان يقولها؟ كان يقول: سآتي إلى زيارتك في القريب العاجل، هل ستكونين مستعدة لاستقبالي يا ماري؟

أهو تحذير سابق؟ هل هو ضعف القلب بسبب تقدمها في العمر؟ قالت السيدة هارتر تحدث نفسها وهي تغادر مقعدها: هذا تحذير، لقد أضعت الكثير من المال في شراء المصعد.

لم تحدّث أحداً بشأن التجربة التي مرت بها، إلا أنها ظلت مبلبلة الخاطر خلال اليومين التاليَين. ثم جاءت المناسبة الثانية. كانت وحدها للمرة الثانية، وبينما كانت الإذاعة تقدّم معزوفة موسيقية توقفت الموسيقى فجأة ثم جاء صوت من بعيد، صوت غريب كأنه صادر من عالم آخَر يقول: باتريك يتحدث إليك يا ماري، سآتي لرؤيتك في القريب العاجل يا ماري.

توقف الصوت وتلاه أزيز لبرهة قصيرة ثم عادت الموسيقى

من جديد. ونظرت السيدة هارتر إلى ساعة الحائط. إنها واثقة من أنها لم تكن نائمة في تلك المرة، وقد سمعت صوت باتريك بوضوح، كانت واثقة من أنها ليست هلوسة. وأجهدت نفسها في تذكّر ما قاله تشارلز عن نظرية الموجات الأثيرية، هل يمكن أن يكون باتريك هو المتكلم حقاً؟ هل استغلّ قدرة الأجهزة العلمية الحديثة ليبلغها رسالته على أمواج الأثير؟

استدعت السيدة هارتر خادمتها إليزابيث (وهي سيدة ضخمة في الستين من عمرها تحمل في قلبها قدراً كبيراً من الحب لمخدومتها) وقالت لها: إليزابيث، هل تذكرين ما قلته لك من قبل؟ السلّم العلوي في الجانب الأيسر من غرفة مكتبي، إنه مغلَق بالمفتاح وأنت تعلمين مكان المفتاح، هل كل شيء معَدّ؟

- معَدّ لأي شيء يا سيدتي؟

- لجنازتي، أنت تفهمين جيّداً ما أعنيه يا إليزابيث، لقد ساعدتِني بنفسك في وضع الأشياء.

عبست إليزابيث وقالت نائحة: سيدتي! اطردي هذه الأفكار من مخيّلتك، أنا أراك في أفضل صحة.

قالت السيدة هارتر بطريقة عملية: كل واحد منّا سيرحل ذات يوم. لقد بلغت أرذل العمر يا إليزابيث، كُفّي عن البكاء أو ابحثي لك عن مكان آخر تبكين فيه.

انسحبت إليزابيث وهي لا تكفّ عن البكاء وهمست السيدة هارتر لنفسها: عجوز حمقاء ولكنها مخلصة، مخلصة للغاية.

هل أوصيت لها بخمسين جنيهاً أم مئة؟ يجب أن أترك لها مئة لأنها خدمتني فترة طويلة.

ظلّت مشغولة البال بتلك المسألة وكتبت رسالة في اليوم التالي إلى المحامي تطلب منه أن يعيد لها الوصية لتلقي عليها نظرة أخرى.

* * *

فاجأها تشارلز في اليوم التالي في أثناء الغداء بقوله: بهذه المناسبة يا عمتي ماري، من هو ذلك العجوز المضحك الذي يوجد في الغرفة الإضافية؟ أعني صورة العجوز ذي اللحية الكثة.

نظرت إليه العمة بصرامة قائلة: هذا عمك باتريك أيها الشاب.

- حقاً! أعرب لك عن بالغ أسفي، لم أكن أعلم أن الصورة له.

قبلت العمة الاعتذار بتأفف ثم قال الشاب بتردد: أنا أعجب في الواقع...

وتوقف عن الكلام فصاحت السيدة هارتر قائلة بانفعال: حسناً، ماذا كنت تريد أن تقول؟

- لا شيء، ربما لم يكن الأمر يستحق الحديث.

- يجب أن تخبرني يا تشارلز عن السبب الذي دفعك إلى الحديث عن صورة عمك؟

بدا الارتباك على تشارلز وقال: لقد أخبرتك يا عمتي، هذه مجرد خيالات، خيالات سخيفة.

- تشارلز، أنا مصرة على سماع ردّ على سؤالي.

- سأخبرك ما دمت تصرين. لقد خُيّل إليّ أني رأيته، الرجل في الصورة كان ينظر من النافذة لحظة وصولي الليلة الماضية. ربما كان ذلك انعكاس الضوء، لكنني تساءلت: "من يكون ذلك الرجل؟". كان يبدو لي شخصاً ينتمي إلى العصور الماضية، وعندما استفسرت من إليزابيث أخبرَتني أنه لا يوجد ضيوف أو غرباء في المنزل، وتصادف أن ذهبت في ساعة متأخرة من الليل إلى الغرفة الخالية ورأيت الصورة المعلقة على الحائط وفوجئت بأنها صورة الرجل الذي رأيته. أعتقد أن تفسير هذا سهل، أظنه العقل اللاواعي. لا شك أنني لمحت الصورة من قبل دون أن أدرك ثم تخيلت بعد ذلك الوجه الذي رأيته في النافذة.

قالت السيدة هارتر بغيظ: النافذة التي تقع في طرف المنزل؟

- نعم، لماذا؟

قالت السيدة هارتر بشرود: لا شيء.

لكنها لم تستطع أن تخفي قلقها؛ فقد كانت تلك الغرفة غرفة ملابس زوجها.

* * *

كان تشارلز متغيباً عن المنزل تلك الليلة أيضاً في حين كانت تجلس السيدة هارتر تصغي إلى المذياع. وانقطع الإرسال

لتستمع إلى ذلك الصوت الغريب القادم من العالم الآخر يقول: ماري، هل أنت مستعدة الآن لاستقبالي؟ سوف آتي يوم الجمعة، الجمعة في التاسعة والنصف، لا تخافي؛ فلن تشعري بأدنى ألم. كوني مستعدة.

عادت الموسيقى بعد انتهاء الصوت مباشرة، وظلت السيدة هارتر جالسة في مكانها ساكنة بعض الوقت وقد امتقع وجهها وأحست بجفاف في حلقها، ثم توجهت في هدوء إلى مكتبها لتكتب السطور التالية: الليلة في تمام الساعة التاسعة والربع سمعت صوت زوجي بوضوح، أخبرني أنه سيأتي في التاسعة والنصف من مساء الجمعة القادم، وإذا تصادف أني متّ في ذاك اليوم وتلك الساعة فأحب أن تُذاع هذه الحقائق لإثبات اتصال الأرواح بنا من العالم الآخر. ماري هارتر.

أعادت السيدة هارتر قراءة ما كتبته ثم وضعت الرسالة في مظروف كتبت عليه عنواناً معيَّناً، ثم دقت الجرس لتستدعي إليزابيث. وحين جاءت الخادمة مسرعة سلّمتها مخدومتها الرسالة قائلة: إليزابيث، إذا كان مقدراً لي أن أموت مساء الجمعة القادم فأرجو أن تسلّمي هذه الرسالة للطبيب مندل.

حاولت الخادمة الاعتراض ولكن مخدومتها استرسلت قائلة: لا تجادليني، سبق أن قلتِ بنفسك إنك تؤمنين برسائل التحذير، وقد تلقيتُ الآن رسالة تحذير. وهناك أمر آخر، لقد تركت لك في وصيتي خمسين جنيهاً وأحب أن أزيد المبلغ إلى مئة، وإذا لم أتمكن من الذهاب بنفسي إلى البنك قبل موتي فعلى السيد تشارلز أن يتولى هذه المهمة.

وكما حدث من قبل طلبت السيدة هارتر من خادمتها أن تكفّ عن البكاء، وتنفيذاً لخطتها فاتحت تشارلز في الموضوع صباح اليوم التالي قائلة: تذكّر جيداً يا تشارلز، إذا حدث لي أيّ شيء يجب أن تحصل إليزابيث على خمسين جنيهاً أخرى.

وقال لها تشارلز بابتهاج: أراك مكتئبة في هذه الأيام يا عمتي، ما الذي سيحدث لك؟ فوفقاً لما قرره الطبيب مندل ستعيشين عشرين عاماً أخرى حتى تحتفلي ببلوغك مئة عام.

ابتسمت السيدة هارتر ولم تقل شيئاً، وانتظرت دقيقة قبل أن تقول: ماذا ستفعل مساء الجمعة يا تشارلز؟

بدت الدهشة على وجه تشارلز وهو يقول: دعاني أيونغز للعب، ولكن إذا أحببت أن أبقى معك...

قاطعته العمة قائلة بإصرار: لا، لا يا عزيزي، أنا أحب أن أكون وحدي في تلك الليلة.

رمقها الشاب بدهشة ولكن السيدة هارتر لم تقدّم له تفسيراً مقبولاً؛ فقد كانت سيدة عجوزاً صلبة الرأي، وقد كانت تريد أن تجتاز التجربة وحدها.

* * *

كان المنزل غارقاً في السكون التامّ مساء الجمعة، وجلست السيدة هارتر كعادتها أمام المدفأة وقد أعدّت الترتيبات اللازمة لمواجهة الموقف. ذهبت إلى البنك في الصباح وسحبت خمسين جنيهاً سلّمتها إلى إليزابيث متجاهلة اعتراضها ودموعها، وجمعت كل متعلقاتها ووضعت بطاقات على بعض قطع

المجوهرات بأسماء الأقارب والأصدقاء الذين أوصت لهم بها، كما كتبت قائمة بتعليمات لتشارلز.

ألقت نظرة أخيرة على المظروف الطويل الذي تمسكه في يدها، كانت تلك الوصية التي سترسلها للسيد هوبكنسون مصحوبة بتعليماتها، ورغم قراءتها لها قبل ذلك مراراً إلا أنها أعادت قراءتها لتنعش ذاكرتها. تركت خمسين جنيهاً لإليزابيث مارشال تقديراً لتفانيها في الخدمة، وأوصت بخمسمائة جنيه لكل من شقيقتها وابن عم لها، وببقية ثروتها لابن أخيها العزيز تشارلز ريدجواي. هزت السيدة هارتر رأسها في رضا؛ سوف يصبح تشارلز رجلاً ثرياً بعد موتها لأنه كان ولداً باراً بها شديد العطف عليها يعمل كل ما بوسعه لإرضائها.

نظرت إلى ساعة الحائط، بقيت ثلاث دقائق قبل أن تعلن الساعة التاسعة والنصف. قالت في نفسها: حسناً، أنا مستعدة الآن.

قالتها وهي هادئة الأعصاب تماماً، ورغم أنها كانت تكرر على نفسها تلك الكلمات مراراً وتكراراً إلا أن دقات قلبها كانت تزداد عنفاً وأعصابها تزداد توتراً مع مرور كل ثانية. التاسعة والنصف، جهاز المذياع مفتوح، ماذا تحب أن تسمع؟ النشرة الجوية أم صوت الرجل الذي رحل من هذا العالم منذ ربع القرن؟ لكنها لم تسمع هذا أو ذاك، وسمعت بدلاً من ذلك صوتاً مألوفاً، صوتاً تعرفه جيداً، ولكنه يبعث الليلة في جسمها إحساساً بالبرودة كأن يداً مثلّجة توضع فوق قلبها. وسمعت صوت إنسان يدلف من الباب الأمامي للمنزل. تكرر الصوت مرة ثانية وأحست بنسمة من الهواء البارد تعصف بالحجرة! لم

يداخلها أي شك في طبيعة الأحاسيس التي تشعر بها في تلك اللحظة، تَسرّب الخوف إلى قلبها، كانت أكثر من خائفة، كانت مذعورة.

تطرقت إلى ذهنها فجأة فكرة غريبة: خمسة وعشرون عاماً تُعتبر زمناً طويلاً، لقد أصبح باتريك غريباً عنها الآن! الفزع كان هو الإحساس الذي يتملكها!

وقع خطوات خارج الباب، صوت الخطوات يتوقف، ثم بدأ الباب يُفتح في هدوء. هبّت السيدة هارتر واقفة وهي تترنح من جانب إلى جانب وعيناها مركّزتان على فتحة الباب، وسقط شيء من يدها في فتحة المدفأة. حاولت أن تصرخ ولكن الصرخة ماتت على شفتيها! كان يقف في الباب شكل مألوف بلحيته الكثة وحلته العتيقة، لقد جاء إليها باتريك! دق قلبها دقة واحدة عنيفة ثم توقف قلبها عن الحركة وسقطت على الأرض.

عثرت عليها إليزابيث بعد ساعة واستدعت الطبيب مندل على عجل وتشارلز ريدجواي الذي كان يلعب البريدج مع أصدقائه، إلا أن الوقت كان قد فات لتقديم أيّ معاونة للعمة العجوز.

* * *

انقضى يومان على وفاة السيدة هارتر قبل أن تتذكر إليزابيث الرسالة التي سلّمتها لها مخدومتها. وقرأ الطبيب مندل الرسالة باهتمام بالغ وأطلع تشارلز على الرسالة قائلاً: مصادفة بالغة الغرابة! ويبدو أن عمتك كانت تهلوس وتتخيل أنها تسمع صوت زوجها الراحل، ولا بد أن أعصابها بلغت حداً كبيراً من التوتر

حتى إذا حلّ الموعد الذي تخيلته كانت الصدمة شديدة وسببت لها الوفاة.

فقال تشارلز: أتقصد الإيحاء الذاتي؟

أجاب الطبيب مندل: شيء من هذا القبيل. سوف أخبرك بنتيجة التشريح في أسرع وقت ممكن رغم أن الشك لا يساورني، ومن الأفضل تشريح الجثة في مثل هذه الظروف رغم أنه مجرد إجراء شكليّ.

وهز تشارلز رأسه مؤمّناً على كلام الطبيب.

* * *

انتهز تشارلز فرصة نوم الخدم في الليلة السابقة ووضع سلكاً معيَّناً بين جهاز المذياع وغرفته التي تقع في الطابق العلوي، وحيث إن الليلة كانت شديدة البرودة فقد طلب من إليزابيث أن تشعل نار المدفأة في غرفته، وحرق في تلك النار اللحية الكثة والسوالف الكبيرة وأعاد إلى الصندوق الكبير الموضوع في غرفة السطح الملابس التي كانت لعمه الراحل.

كان على ثقة من أنه بعيد عن الشبهات تماماً. لقد نبتت الخطة في ذهنه عندما سمع الطبيب مندل يخبره أن عمته قد تعيش سنوات ولكن صدمة مفاجئة يمكن أن تقضي عليها في غمضة عين.

وعندما انصرف الطبيب مضى تشارلز يؤدي واجباته بطريقة آلية. كان عليه أن يعدّ الترتيبات اللازمة للجنازة واستدعاء الأقارب الذين يقيمون في مناطق بعيدة، ولا بد من تدبير أماكن

إقامتهم بعد تشييع الجنازة. تولّى تشارلز كل الأمور ببراعة ودقة ثم همس لنفسه: يا لها من ضربة موفقة!

لم يكن أحد يدري (حتى عمته) أيّ موقف خطير يواجهه؛ فقد كان معرَّضاً للسجن والخراب ما لم يستطع خلال شهور قليلة أن يدبّر قدراً كبيراً من المال، وقد تم له الآن ما كان يسعى إليه. ولم يكن التدبير الذي أعدّه إجرامياً، بل كانت مجرد مزحة، وقد أنقذته من الخراب؛ فقد أصبح بسببها رجلاً ثرياً.

لم يكن يساوره القلق لأن عمته لم تكن تخفي نواياها وقد صارحته بأنه الوريث الوحيد لمعظم ثروتها. وبينما كان تشارلز يسعد بهذه الخواطر جاءته إليزابيث لتخبره برغبة السيد هوبكنسون في مقابلته، فرسم تشارلز على وجهه مظاهر الحزن وذهب إلى المكتب ليحيّي الرجل العجوز الذي كان المستشار القانوني للسيدة هارتر خلال ربع القرن الأخير.

جلس المحامي بناء على إشارة من تشارلز، وبعد أن تنحنح قال: لم أفهم تماماً ما يعنيه خطابك لي يا سيد ريدجواي! يبدو أنك تتصور أن وصية السيدة هارتر في حوزتي.

حملق تشارلز في وجهه دهشاً وهو يقول: ولكنني سمعت عمتي تردّد ذلك أكثر من مرة.

- تماماً، تماماً، كنت أحتفظ بالوصية.

- كنت؟!

- هذا هو ما قلته، غير أن السيدة هارتر طلبت مني يوم الثلاثاء الماضي أن أرسل لها الوصية.

تسرّب القلق إلى قلب تشارلز في حين أردف المحامي يقول: سوف تظهر الوصية بين أوراق الراحلة.

لم يقُل تشارلز شيئاً؛ كان يخشى أن يخونه لسانه؛ فقد قام بفحص جميع الأوراق التي تركتها عمته دون أن يعثر على أية وصية بينها. وعندما استعاد هدوء أعصابه قال إنه بحث في جميع أوراق عمته فقال المحامي: هل عبث أي إنسان بمقتنياتها الشخصية؟

أجاب تشارلز: إليزابيث هي التي فعلت ذلك.

وعندئذ أرسل المحامي في طلب الخادمة التي جاءت على الفور لتجيب على الأسئلة الموجهة إليها، واعترفت بأنها فحصت كل ملابس سيدتها ومقتنياتها الشخصية، ولكنها واثقة من عدم عثورها على أية مستندات قانونية، وواثقة أيضاً من معرفتها شكل الوصية جيداً لأن سيدتها كانت تمسكها بين يديها في صباح اليوم الذي ماتت فيه.

قال المحامي بحدة: هل أنت واثقة من ذلك؟

- نعم يا سيدي، هكذا أخبرتني سيدتي وأعطتني خمسين جنيهاً. كانت الوصية داخل مظروف أزرق طويل.

قال السيد هوبكنسون: هذا صحيح.

فقالت إليزابيث: لقد تذكرت الآن، لقد عثرت على ذلك المظروف صباح اليوم التالي وكان فارغاً، وقد وضعته فوق المكتب.

وأضاف تشارلز معقّباً: أذكر أنني رأيته هناك.

وقف تشارلز واتجه نحو المكتب ثم عاد بعد قليل يحمل المظروف الأزرق وسلّمه للسيد هوبكنسون الذي فحص المظروف ثم هز رأسه قائلاً: هذا نفس المظروف الذي وضعت فيه الوصية يوم الثلاثاء الماضي.

نظر كل من الرجلين إلى إليزابيث التي قالت بأدب: هل تطلب مني شيئاً آخر يا سيدي؟

- لا، ليس في الوقت الحاضر، شكراً لك.

اتجهت الخادمة نحو الباب ولكن المحامي استوقفها بقوله: لحظة واحدة، هل كانت نيران المدفأة مشتعلة في تلك الليلة؟

- نعم يا سيدي، نار المدفأة مشتعلة دائماً.

- شكراً لك، يكفي هذا.

انصرفت الخادمة في حين قال تشارلز للمحامي: ما رأيك الآن؟

هز المحامي رأسه قائلاً: سوف نتعلق بأمل ظهور الوصية، وفي حالة عدم ظهورها...

- حسناً، ماذا يحدث إذا لم تظهر الوصية؟

أجاب المحامي: أخشى أن أخبرك أنه لا يوجد سوى استنتاج واحد محتمَل: لقد طلبت عمتك الوصية لتعدمها، وخوفاً من أن تخسر إليزابيث نصيبها فقد أعطتها نصيبها نقداً!

صاح تشارلز قائلاً بوحشية: ولكن لماذا؟ لماذا؟

- هل وقع خلاف بينك وبين عمتك يا سيد ريدجواي؟

شهق تشارلز وهو يقول: لا، لقد كنّا على وفاق تامّ منذ البداية وحتى آخر لحظة.

قال السيد هوبكنسون دون أن ينظر إليه: هكذا.

خُيل لتشارلز أن المحامي لا يصدّقه. من يدري؟ فلعلّ ذلك العجوز قد سمع بعض الإشاعات عن المتاعب المالية التي يواجهها، ولعل نفس الإشاعات بلغت مسامع عمته ففكّرت في تغيير الوصية. ولكن تشارلز واثق من أن شيئاً من ذلك لم يحدث؛ فقد صدّق الجميع أكاذيبه. يا لسخرية القدر!

لم تحرق عمتُه الوصيةَ بالتأكيد، هذا ما تطرّق إلى باله. وتوقفت أفكاره فجأة، ما هي تلك الصورة التي ترتسم أمام عينيه؟ سيدة عجوز تضغط بإحدى يديها على قلبها، ثم ينزلق شيء من يدها، ورقة، تسقط الورقة فوق اللهيب المشتعل في المدفأة...

شحب وجه تشارلز وسُمع صوته مبحوحاً وهو يسأل: ماذا يحدث إذا لم يتم العثور على تلك الوصية؟

- هناك الوصية السابقة للسيدة هارتر المؤرَّخة في سبتمبر عام ألف وتسعمئة وعشرين، وتترك العمة بموجب هذه الوصية كل ثروتها إلى ميريام هارتر التي تُعرف الآن باسم ميريام روبنسون.

دوّى في تلك اللحظة رنين جرس الهاتف، ورفع تشارلز السماعة ليطالعه صوت الطبيب مندل الذي قال له برقّة: أهذا أنت يا ريدجواي؟ ظننت أنك تريد أن تعرف نتيجة التشريح الذي انتهى منذ لحظات. سبب الوفاة هو نفس ما خمّنته، إلا أن

التشريح أثبت أن مرض القلب كان أخطر مما نتصور؛ فلم يكن مقدَّراً لها أن تعيش أكثر من شهرين. ربما كانت هذه الأخبار تعزّيك بعض الشيء.

قال تشارلز: هل تسمح أن تعيد ما قلته مرة أخرى؟

قال الطبيب بصوت أكثر ارتفاعاً: لم يكن مقدَّراً لها أن تعيش أكثر من شهرين.

أعاد السماعة إلى مكانها بعنف، وخُيل إليه أنه يسمع صوت المحامي يأتي من مكان بعيد: يا عزيزي السيد ريدجواي، هل أنت مريض؟

* * *

المصباح

كان المنزل عتيقاً تفوح منه رائحة الماضي، وكانت تسري في غرفه وردهاته وقاعاته برودة، وكانت منازل المنطقة كلها تنتمي إلى الماضي ولكن المنزل رقم تسعة عشر كان أكثرها قدماً وبرودة. لو أن بيتاً كهذا كان يوجد في أي مدينة أخرى لقيل إنه مسكون بالأشباح، إلا أن المنزل رقم تسعة عشر لم يُقَل عنه قط إنه مسكون، ورغم هذا فقد ظلت تُعلَّق عليه عاماً بعد عام لافتة تقول إن المنزل معروض للإيجار أو البيع.

نظرت السيدة لانكستر إلى المنزل بارتياح وهي تسير مع السمسار الثرثار الذي كانت على وجهه أمارات الفرحة الطاغية لأن المنزل قُدّر له أخيراً أن يُشطَب من دفاتره، وقالت السيدة لانكستر: منذ متى والمنزل خالٍ؟

اضطرب السيد راديش قليلاً ثم قال متلعثماً: منذ... منذ بعض الوقت.

قالت السيدة لانكستر بجفاف: هذا ما تخيلته.

كانت الصالة ذات الضوء الخافت باردةً. ولو أن سيدة أخرى تجولت فيها لسرت البرودة في جسدها، ولكن هذه السيدة كانت عملية للغاية. كانت طويلة ذات شعر بُنّي يميل إلى السواد بدأت الشعيرات الرمادية تتسلل إليه، وكانت عيناها زرقاوين هادئتين.

استمرت السيدة لانكستر في جولتها لتشاهد الغرف المقامة في السطح، وحين انتهت من جولتها عادت إلى إحدى الغرف التي تطل على الميدان وواجهت السمسار بعزم قائلة: ما قصة هذا المنزل؟

فوجئ السيد راديش بالسؤال وقال بعد هنيهة: كل المنازل تكون كئيبة بعض الشيء عندما تكون عارية من الأثاث.

قالت السيدة لانكستر: عجباً، إيجار المنزل منخفض للغاية، ولا بد أن يكون لذلك سبب. هل البيت مسكون؟

ارتعد السيد راديش ولم يقُل شيئاً، فرمقته السيدة لانكستر بنظرة حادة ثم قالت: مسألة الأشباح عبث على أية حال، وأنا لا أؤمن بالأشباح ولا بأي شيء هذا القبيل، ولن يكون ذلك سبباً لتركي المنزل. ولكن الخدم لسوء الحظ يؤمنون بتلك الخرافات ويرتعدون خوفاً، ولهذا أطلب منك أن تخبرني بالقصة الحقيقية. ماذا يُفترض أنه ينتاب هذا المسكن؟

قال السمسار متلعثماً: أنا في الواقع لا أعرف.

ردت السيدة لانكستر بهدوء: أنا واثقة من علمك بالأمر، ولا أستطيع استئجار المنزل دون أن أعرف الحقيقة. ماذا كان السبب؟ جريمة قتل؟

صاح السيد راديش بانفعال: لا، بل كان مجرد طفل.

- طفل؟!

- نعم.

ثم تابع قائلاً: لا أعرف القصة على وجه التحديد؛ فالروايات

كثيرة. ولكنني سمعت أن رجلاً يُدعى ويليامز استأجر المنزل منذ ثلاثين عاماً، ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن ماضيه. كان يقيم وحده في المنزل دون خدم ولم يكن له أصدقاء، وقد كان يغادر المنزل أثناء النهار. وكان له طفل وحيد صغير، وبعد نحو شهرين من إقامته في المنزل ذهب إلى لندن، وما كاد يصل إلى العاصمة حتى تم التعرف عليه باعتباره مجرماً تطارده الشرطة، ويبدو أن جرمه كان خطيراً لأنه بدلاً من تسليم نفسه أطلق الرصاص على نفسه. في نفس الوقت كانت لدى الطفل الذي يقيم وحده في المنزل كمية محدودة من الطعام، وظل الطفل ينتظر رجوع أبيه يوماً بعد يوم، ولسوء حظه كانت التعليمات الصادرة إليه من أبيه ألاّ يغادر المنزل مهما كانت الظروف وألاّ يتحدث مع أيّ إنسان، وكان المخلوق الصغير ضعيفاً معتلّ الصحة ولم يكن باستطاعته أن يخالف أوامر أبيه، وكان الجيران يسمعون الطفل في أثناء الليل يبكي بكاء شديداً حاراً حتى يتفطر قلبه.

سكت السيد راديش قليلاً ليبتلع ريقه ثم استأنف حديثه قائلاً: والذي حدث أن الطفل مات من الجوع.

قال السمسار ذلك كمن يعلن عن بدء سقوط المطر، وسألته السيدة لانكستر: وهل المفروض أن شبح الطفل هو الذي يسكن المنزل؟

تردد السيد راديش برهة قبل أن يقول: لا شيء يُرى في المنزل. يقول الناس إنهم يسمعون فقط بكاء الطفل.

تحركت السيدة لانكستر نحو الباب الأمامي قائلة: أنا أميل إلى هذا المنزل ولن أحصل على أفضل منه بهذا الإيجار. سأفكر

في الأمر ثم أعاود الاتصال بك.

* * *

قالت السيدة لانكستر وهي تدير بصرها في المكان بإعجاب: ألا يبدو المنزل بهيجاً يا أبي؟ لقد تمّ فرش المنزل بالأثاث اللامع والسجاجيد ذات الألوان الزاهية فتغير مظهره بشكل واضح.

كانت السيدة لانكستر توجه حديثها إلى رجل عجوز متهدل الكتفين تتألق في عينيه نظرات غامضة. كان السيد وينبورن مختلفاً تمام الاختلاف عن ابنته؛ فقد كان خيالياً بعكس ابنته الواقعية، وقال لها باسماً: بلى، لم يكن أحد يحلم بالإقامة في منزل مسكون.

- أبي، لا تقل هذا العبث، وعلى الأخص في اليوم الأول.

ابتسم السيد وينبورن وقال: حسناً يا عزيزتي، سوف نتفق على أنه لا توجد أشياء مثل الأشباح.

- أرجوك ألاّ تقول شيئاً من هذا أمام جيوفري؛ فهو ذو عقلية مغرَقة في الخيال.

وكان جيوفري هو الابن الصغير للسيدة لانكستر، وكانت العائلة تتكون من السيد وينبورن وابنته الأرملة وجيوفري.

بدأت قطرات المطر تتساقط على النافذة محدِثة صوتاً رتيباً، فقال السيد وينبورن معلّقاً على الصوت: هل تَسمعين؟ أليس الصوت مشابهاً لوقع خطوات شخص صغير؟

قالت السيدة لانكستر باسمة: بل هو صوت المطر.

قال الأب وهو يرهف أذنيه: ولكن هذا صوت خطوات.

اعتدلت السيدة لانكستر قائلة: هذا وقع أقدام جيوفري وهو يهبط الدرج.

اضطُر السيد وينبورن إلى مشاركتها الضحك. كانا يشربان الشاي في الصالة وكان يدير ظهره للدرج، وقد استدار في تلك اللحظة ليواجهه. كان جيوفري الصغير يهبط درجات الدرج ببطء وخطوات منتظمة بحذر الطفل الذي يتعامل مع مكان جديد، وكانت درجات الدرج من خشب البلوط العارية من السجاد. هبط الصبي ليقف بجوار أمه، وبينما كان يخطو على أرض الصالة شهق السيد وينبورن بارتياع؛ فقد سمع بوضوح وقع خطوات طفل يهبط الدرج كأن شخصاً يتبع جيوفري وهو يجر ساقيه جراً، وهز السيد وينبورن كتفيه وهو يقول في دهشة: ربما كان صوت المطر.

وقال الصبي لأمه: أريد أن أتذوق هذا الكعك.

سارعت الأم لتلبية رغبة ابنها ثم سألته باهتمام: حسناً يا بني، هل تحب البيت الجديد؟

قال جيوفري وفمه ممتلئ بالطعام: أحبه جداً جداً.

انتظر الصبي برهة حتى يمضغ الطعام ثم تابع يقول: آه يا أمي! توجد غرف كثيرة بالسطح وأريد أن أستكشفها جميعاً، وربما عثرت على باب سرّي. تقول مربيتي جين إنه لا توجد أبواب سرية، ولكنني أعتقد أني سأعثر على واحد. على أية حال

أعلم أنه توجد في السطح مواسير كثيرة، مواسير مياه، وبوسعي أن ألعب بها. هل أستطيع مشاهدة الغلاية؟

قالت السيدة لانكستر: سنفكر يا عزيزي في أمر غرف السطح غداً، ما رأيك الآن في أن نلهو بلعبة المكعبات وتبني لنفسك بيتاً أو آلة؟

قال له جده: ما رأيك في بناء غلاية؟

أشرق وجه جيوفري وقال: سأصنعها بالمواسير.

- نعم، بعدد كبير من المواسير.

انصرف الصبي مسرعاً ليبحث عن اللعبة، وكان المطر لا يزال يتساقط. أرهف السيد وينبورن أذنيه، أجل، ربما كان الصوت لقطرات المطر، ومع هذا فهو يسمع وقع أقدام بوضوح.

* * *

حلم العجوز بحلم غريب في تلك الليلة؛ حلم أنه يمشي في مدينة ضخمة ولكنها مدينة أطفال، كل سكانها من الأطفال، ورأى جميع الأطفال في الحلم يندفعون نحو الغريب القادم صائحين: هل أحضرته معك؟

وكان يبدو أنه يفهم ما يقصدونه. وهزّ رأسه في أسف، وعندما رآه الأطفال أداروا له ظهورهم وهم يبكون بكاء مريراً.

أصبحت صورة المدينة باهتة واستيقظ العجوز ليجد نفسه في سريره، ولكن نشيج الأطفال كان لا يزال يرنّ في أذنيه، ورغم

أنه كان في كامل وعيه إلا أنّ أصوات البكاء كانت مسموعة بوضوح، وتذكّر الجدّ أن جيوفري ينام في الطابق الأرضي تحته في حين كان صوت البكاء الذي يسمعه صادراً من أعلى. جلس الجد في سريره وأشعل عوداً من الثقاب فانقطع البكاء في الحال.

لم يروِ السيد وينبورن لابنته الحلم الذي رآه أو الصوت الذي سمعه في أعقاب الحلم؛ فربما كان قد تخيّل ذلك، إلاّ أنه سمع صوت البكاء مرة ثانية في أثناء النهار! كانت الرياح تصفع المدخنة، ولكن ذلك كان صوتاً منفصلاً عن صوت بكاء مرير لطفل يتفطر قلبه من الأسى. اكتشف كذلك أنه ليس الشخص الوحيد الذي يسمع الصوت؛ فقد سمع الخادمة تقول للوصيفة: "لا أعتقد أنّ في قلب المربية ذرة من الحنان؛ فقد سمعت السيد جيوفري يبكي بكاء مراً هذا الصباح"، في حين كان الصبي قد وصل ليتناول الإفطار في أحسن صحة وهو متهلل الأسارير. وكان السيد وينبورن يعلم أن البكاء لم يكن صادراً عن جيوفري بل عن ذلك الطفل الآخر الذي يجرّ ساقيه جرّاً والذي فزع الجد لدى سماعه وقع أقدامه في المرة الأولى.

كانت السيدة لانكستر وحدها التي لا تسمع شيئاً، وربما لم تكن أذناها مهيأتَين لسماع تلك الأصوات، ورغم ذلك فقد تلقّت بدورها صدمة عندما جاءها جيوفري يقول: أمي، أريد أن تسمحي لي باللعب مع الولد الصغير.

رفعت الأم رأسها باسمة لتقول له: أيّ ولد يا حبيبي؟

- لا أعرف اسمه. كان في إحدى غرف السطح يبكي وهو جالس على الأرض، ولكنه ولّى هارباً عندما رآني. أعتقد أنه

خجل مني لأنه يتصرف كالأطفال الكبار. ومرة ثانية عندما كنت في غرفتي مشغولاً بلعبي رأيته واقفاً بالقرب من باب حجرتي يراقبني وأنا أقيم منزلاً، وكان يبدو عليه الشعور بالوحدة الموحشة كأنه يرغب في اللعب معي، فقلت له: "تعالَ واشترك معي في بناء آلة"، ولكنه لم يفعل شيئاً واكتفى بالنظر إليّ كأنه يرى كمية كبيرة من الحلوى وقد أمرَته أمه ألاّ يلمسها.

تنهد جيوفري وهو يسترجع تلك الذكريات الأليمة ثم أردف يقول: ولكنني عندما سألت جين عمّن يكون ذلك الطفل وأخبرتُها أنني أرغب في اللعب معه أخبرتني أنه لا يوجد طفل صغير في المنزل، وطلبت مني ألاّ أردد هذه القصص السخيفة. أنا لا أحب جين أبداً.

نهضت السيدة لانكستر وهي تقول: لقد كانت جين على حق؛ لا يوجد طفل صغير في هذا المنزل غيرك.

فقال الطفل: ولكنني رأيته، آه يا أمي! أرجوك أن تسمحي لي باللعب معه فهو يبدو وحيداً تعساً وأنا أريد أن أفعل شيئاً لأبدّد أحزانه.

كانت السيدة لانكستر على وشك أن تقول شيئاً، ولكن أباها هز رأسه وقال للطفل برقّة زائدة: جيوفري يا عزيزي، ذلك الولد الصغير يعاني من الوحدة وربما كان باستطاعتك أن تفعل شيئاً لتخفف من آلامه. يجب عليك أن تكتشف الوسيلة بنفسك كما تفعل بالنسبة للغز، هل فهمت قصدي؟

فقال الطفل مستفهماً: هل السبب لأنني كبرت ولا بد أن أفعل كل شيء بنفسي؟

- نعم، لأنك كبرت.

وعندما انصرف الطفل من الغرفة أدارت السيدة لانكستر رأسها نحو أبيها وقالت بنفاد صبر: أبي، هذا اقتراح سخيف أن تشجع الولد على الإيمان بصدق ما تقوله الخادمات من قصص سخيفة.

أجابها العجوز قائلاً برقّة: لم تخبره الخادمات بشيء على الإطلاق، لقد رأى بعينيه ما سمعته أذناي، والذي كان باستطاعتي أن أراه لو كنت في مثل عمره.

قالت السيدة لانكستر: ولكن هذا تخريف؛ لماذا لا أسمع أنا أو أرى؟

ابتسم السيد وينبورن ابتسامة ملل ولم يقل شيئاً فعادت ابنته تسأله: لماذا؟ ولماذا قلت له إن باستطاعته مساعدة ذلك الطفل؟ الأمر كله يبدو مستحيلاً!

نظر إليها الرجل العجوز مفكراً ثم قال: لماذا لا يستطيع؟ جيوفري لديه موهبة أو ملَكة، يمتلك كل الأطفال هذه الملَكة، وكلما كبرنا فقدنا هذه الخاصية. ويحدث في بعض الأحيان عندما يتقدم بنا العمر أن يعود إلينا بصيص من هذه الملَكة، ولكن المصباح يزداد اشتعالاً وهو في طفولته. هذا هو السبب الذي يجعلني أتصور أن جيوفري قادر على المساعدة.

تمتمت السيدة لانكستر قائلة بضعف: أنا لا أفهم.

- كذلك أنا. ذلك الطفل يواجه المتاعب ويريد أن يتحرر منها، ولكن كيف؟ لا أدري! ولكنه أمر مُريع أن يفكّر الإنسان

في الموضوع، موضوع ذلك الطفل الذي يتمزق قلبه من شدة البكاء.

* * *

أصيب جيوفري بمرض شديد بعد انقضاء شهر على ذلك الحوار. كانت الرياح الشرقية بالغة العنف، ولم تكن بنية الطفل قوية، وهزّ الطبيب رأسه في أسى عندما اكتشف خطورة الحالة، وقد صارح السيد وينبورن في غياب الأم بأن الحالة ميؤوس منها تماماً وقال له: لم يكن من المقدَّر لهذا الطفل أن يعيش حتى يكبر تحت ظل أيّ ظرف. لقد كان يعاني من مرض خطير في الرئة منذ وقت طويل.

بدأت السيدة لانكستر تحسّ بوجود الطفل الآخَر في أثناء قيامها بتمريض ابنها، وكان من الصعب في البداية تمييز بكاء الطفل من صوت الريح، ولكنه أخذ مع مرور الوقت يزداد وضوحاً بشكل لا يمكن أن تخطئه الأذن، وأخيراً بدأت تسمع البكاء في لحظات الصمت التام، كان نشيج طفل يتمزق قلبه من الأسى.

ازدادت حالة جيوفري تدهوراً، وكان يتحدث في أثناء فترات سباته العميق عن الولد الصغير ويكرر ذلك المرة بعد الأخرى ثم يصيح قائلاً: أنا أرغب في مساعدته، أريد أن أساعده.

كانت تعقب فترات السبات العميق حالة من الصحوة حيث يلزم جيوفري السكون وأنفاسه تتردد بصعوبة، ولم يكن أمام الأم سوى أن تنتظر في صبر، حتى جاءت ليلة يخيّم فيها السكون

والهدوء التامّان بحيث لا تهبّ نسمة واحدة من الهواء، وتَململ الطفل في رقدته وفتح عينيه، وتجاوزت نظراته أمه إلى الباب المفتوح محاولاً أن يتكلم، وانحنت الأم فوقه لتلتقط الكلمات الخافتة. كان الطفل يقول هامساً: حسناً، أنا قادم.

ثم سكنت حركة الطفل تماماً! وأُصيبت الأم بفزع شديد وعبرت الغرفة إلى الركن الذي يجلس فيه أبوها، وسمعت صوت ضحكة تنمّ عن الفرح أطلقها الطفل الآخر، ضحكة تعبّر عن الارتياح والنصر، وتَردّد صدى الضحكة في الغرفة، وصاحت الأم قائلة بارتياع: أنا خائفة، خائفة!

لفّ الأب ذراعيه حولها لحمايتها، وهبّت نسمة مفاجئة من الهواء بسرعة ثم لفّ الصمت الغرفة مرة أخرى. انقطع الضحك ثم بدأ يتسلل صوت خافت لا يكاد يُسمَع، ثم لم يلبث أن ازداد وضوحاً، صوت أقدام على الأرض وهي تبتعد بسرعة عن المكان، كان صوت وقع تلك الأقدام تجري، ولكن دون أدنى شك يتبعها في تلك المرة وقع أقدام أخرى تتحرك بصورة أسرع.

قفز العجوز وابنته متجهَين نحو الباب وسمعا وقع الأقدام تهبط الدرج، وقع أقدام الطفلين معاً، ونظرت السيدة لانكستر إلى أبيها قائلة بحدة: هذا وقع أقدام طفلين!

اتجهت الأم والفزع في عينيها نحو سرير الطفل، ولكن أباها منعها برفق. وأخذ الصوت يزداد خفوتاً، ثم خيّم الصمت مرة أخرى.

* * *

حكاية السير آرثر كارْمايكل الغريبة

من مذكّرات الدكتور إدوار كارستيرز
عالم الطبيعة المشهور

أنا على وعي كامل بأنه توجد طريقتان مختلفتان للنظر إلى الأحداث الغريبة والمحزنة التي سوف أرويها، ولكن رأيي الشخصي لا يتزعزع، وقد اقتنعت بضرورة كتابة القصة كاملة وأنا أعزو الأحداث الغريبة التي يصعب تفسيرها إلى العلم الذي يحتّم عرضها للدراسة.

تبدأ القصة ببرقية تلقّيتها من صديقي الدكتور سيتل، وفيما عدا اسم كارمايكل فلم تكن البرقية واضحة، ونزولاً على رغبة صديقي ركبت قطار الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة من بادنغتون إلى وُولدن في هيرفوردشاير.

لم يكن اسم كارمايكل غريباً عني؛ فقد كانت تربطني معرفة بسيطة بالسير ويليام كارمايكل الراحل رغم عدم التقائي به خلال الأحد عشر عاماً الماضية، وكنت أعرف أن له ابناً هو البارون الحاليّ، والمفروض أنه يبلغ الآن من العمر نحو ثلاثة وعشرين عاماً، وأذكر أني سمعت بعض الإشاعات التي تقول إن السير ويليام تزوّج للمرة الثانية، ولكنني لم أكن أذكر شيئاً محدَّداً سوى شعور غامض نحو الزوجة الثانية.

قابلني ستيل في المحطة ورحب بي قائلاً: كان لطفاً منك أن تحضر.

- أنا مصرّ على معرفة كافّة الحقائق.

- هذا أمر لا يخصّ آرثر، بل يتعلق بالمنزل.

كررت بدهشة: المنزل؟!

- لك تجارب عديدة في هذا الشأن يا كارستيرز، أعني البيوت المسكونة بالأشباح، ما رأيك في هذا الموضوع؟

- في تسع حالات من كل عشر يكون الأمر دجلاً، ولكن الحالة العاشرة... حسناً، الحالة العاشرة تدخل في نطاق الظواهر التي يصعب تفسيرها من وجهة النظر المادية، ومع هذا فأنا ممن يؤمنون بالسحر.

هزّ ستيل رأسه موافقاً، وكنا قد اقتربنا من أبواب حديقة القصر عندما أشار لي صديقي بسوطه نحو قصر أبيض صغير يقع على جانب التل وقال: هذا هو المكان، ويوجد شيء غامض في ذلك القصر، شيء فظيع كلنا نحس به، ولكنني لست ممن يؤمنون بالخرافات.

- أيّ شكل يتخذه ذلك الغموض؟

- أفضّل أن تكتشف ذلك بنفسك حتى لا تكون متحيزاً لرأيي.

- هذا أفضل، ولكنني أكون أكثر سعادة لو أنك زودتني بمعلومات أوفر عن العائلة.

- تزوج السيد ويليام مرتين، وآرثر هو ابنه من الزوجة الأولى، وقد تزوج مرة ثانية منذ تسع سنوات.

نقلنا الحقائب إلى عربة يجرها الحصان وأخذنا طريقنا نحو وُلدَنْ التي تقع على مسافة ثلاثة أميال من المحطة، ثم انفجر

ستيل فجأة قائلاً: لا يوجد تفسير معقول! هذا شاب في الثالثة والعشرين من عمره، لا أستطيع أن أقول إنه يتميز بذكاء خارق ولكنه شابّ ينتمي إلى الطبقة العليا الإنكليزية ويُعتبر متميزاً وفي صحة جيدة، والغريب في الأمر أنه يذهب ذات ليلة إلى فراشه ثم يستيقظ صباح اليوم التالي شبه مجنون، يتجول في القرية غير قادر على معرفة أقرب وأحب الناس إليه!

قلت بدهشة: آه، حالة فقدان كلّيّ للذاكرة؟ ومتى حدث ذلك؟

- صباح أمس التاسع من أغسطس.

- ألم تكن هناك صدمة عصبية أو شيء من هذا القبيل؟

- لم تكن هناك صدمات إطلاقاً.

- هل أفهم من هذا أن الموضوع يدخل في اختصاصي؟

- إلى حد كبير.

- إذن فهي قضية اختلال عقلي؟

داخلني شكّ مفاجئ فقلت: أتخفي عني بعض الحقائق؟

أجاب بعد تردد قصير حاول أن يخفيه: لا، مطلقاً.

أكّد لي تردده صدق شكوكي فقلت له: أريد أن أعرف مَن تلك السيدة.

تردد ستيل قليلاً ثم استرسل يقول: أنا شخصياً أحس بالنفور من تلك السيدة وأحس بأن وراءها سرّاً غامضاً! حسناً، فلنعُد إلى قصتنا. أنجب السير ويليام من زوجته الثانية ولداً آخَر

يبلغ من العمر الآن ثمانية أعوام، وقد مات السير ويليام منذ ثلاث سنوات وورث آرثر اللقب والمكان، واستمرت زوجة أبيه وابنها في العيش معه. أحب أن أقول لك إن الضيعة في حالة يُرثى لها وإنّ دخل السير آرثر لا يكاد يكفي لتغطية النفقات، وقد ترك السير كارمايكل لزوجته دخلاً سنوياً لا يتعدى بضعة مئات من الجنيهات، ولكن آرثر لحسن الحظ كان على علاقة طيبة بزوجة أبيه ورحّب بمعيشتها معه، والآن...

- ماذا؟

- خطب آرثر منذ شهرين فتاة جميلة هي الآنسة فيليس باترسون، وكان من المفترض أن يتمّ الزواج في الشهر المقبل. والفتاة تقيم الآن في القصر، ولك أن تتصور مدى حزنها.

حنيت رأسي في صمت. كنا نقترب من القصر وكانت المروج الخضراء على يميننا تنحدر برفق، وطالعتنا فجأة صورة شابة تعبر المروج في طريقها إلى القصر، كانت مكشوفة الرأس وتنعكس أشعة الشمس على شعرها الذهبيّ لتزيده توهجاً، وكانت تحمل سلّة مملوءة بالورد في حين تتمسح في قدميها قطة فارسية اللون.

التفتّ نحو ستيل مستفسراً فقال: هذه الآنسة باترسون.

- يا للمسكينة! يا لها من صورة رائعة ترسمها مع وردها وقطتها الرمادية.

سمعت شهقة صديقي فالتفتّ نحوه بسرعة لأرى العنان قد أفلت من بين أصابعه، وكان وجهه ممتقعاً فسألته: ما بك؟

تمالك ستيل هدوء أعصابه وقال: لا شيء، لاشيء.

بلغنا القصر بعد لحظات وتبعت صديقي إلى غرفة الاستقبال حيث كان الشاي يُعَدّ على المنضدة، واستقبلتني السيدة كارمايكل مرحّبة وقال ستيل: السيدة كارمايكل، صديقي الدكتور كارستيرز.

لا أستطيع أن أفسّر سبب نفوري من الأرملة الجميلة التي استقبلتني بترحيب شديد، وتذكرت إشارة ستيل إلى الدم الغجري الذي يجري في عروقها. قالت السيدة بصوت ناعم: كان لطفاً منك تفكيرك في الحضور يا دكتور ومحاولتك مساعدتنا في محنتنا العظيمة.

تناولتُ في صمت فنجان الشاي الذي قدمَته لي، ورأيت بعد دقائق الفتاة الحسناء التي رأيناها في المروج خارج الغرفة، وكانت لا تزال تحمل سلة الورد غير أن القطة لم تكن معها، وقام ستيل بواجب التعارف بيننا.

قالت الفتاة: الدكتور كارستيرز، قال الدكتور ستيل الشيء الكثير عنك، ولديّ إحساس بأنك سوف تتمكن من مساعدة آرثر المسكين.

كانت الآنسة باترسون شابة رائعة الجمال رغم شحوب خدّيها والدوائر السوداء التي تحيط عينيها، وقلت لها مطَمْئناً: أرجو ألاّ تستسلمي لليأس يا عزيزتي؛ فحالات فقدان الذاكرة أو ازدواج الشخصية لا تستمرّ طويلاً وقد يستردّ المريض صحته بين دقيقة وأخرى.

هزّت الفتاة رأسها وهي تقول: لا أصدق أن هذه حالة ازدواج للشخصية، ليس هذا آرثر أبداً، ليست هذه شخصيته!

تدخلت السيدة كارمايكل في الحديث قائلة: عزيزتي فيليس، تناولي الشاي.

أدركت من نظرة السيدة كارمايكل للفتاة أنها لا تميل إليها، ورفضت الآنسة باترسون قبول الشاي فسألتُها: ألن تقدمي طبقاً من اللبن لقطتك؟

رمقتني الفتاة بدهشة وهي تقول: القطة؟!

- القطة التي كانت ترافقك منذ لحظات في الحديقة.

فوجئْتُ بارتطام شيء بالأرض، واكتشفت أن السيدة كارمايكل أسقطت إبريق الشاي فانسكب الماء الساخن فوق الأرض فعالجَت الأمر بسرعة، والتفتت فيليس نحو ستيل بأعيُن متسائلة، فوقف ستيل قائلاً لي: ألا تحب أن تلقي الآن نظرة على مريضك؟

تبعته في الحال ورافقتنا الآنسة باترسون. صعدنا الدرَج في حين أخرج ستيل مفتاحه من جيبه قائلاً: في بعض الأحيان تنتابه الرغبة في التجول، لهذا أغلق الباب عندما أكون خارج المنزل.

فتح لنا الباب ودخلنا، وكان الشاب يجلس على مقعد بجوار النافذة حيث كانت تتسلل أشعة الشمس الغاربة، وكان يجلس في منتهى الهدوء وقد استرخت كل عضلات جسمه، وخُيّل إليّ في البداية أنه غير منتبه لوجودنا حتى فطنت إلى أنه يراقبنا خلسة، وخفض بصره عندما التقت عيناه بعينَيّ ورمش بعينيه ولكنه لم يتحرك.

قال له ستيل بمرح: انتبه يا آرثر، لقد جاءت الآنسة باترسون وأحد أصدقائي لزيارتك.

لم يتململ الشاب في جلسته رغم أني لاحظت بعد قليل أنه يخالسنا النظرات، وقال له ستيل: هل ترغب في الشاي؟

وضع ستيل على المنضدة كوباً من اللبن فرمقته بدهشة، ولكنه ابتسم ثم قال: أمر غريب؛ اللبن هو الشراب الوحيد الذي يلمسه.

بعد قليل ودون تعجّل نهض آرثر بتثاقل وسار نحو المنضدة ببطء، ولاحظتُ فجأة أن حركاته تتم دون حدوث صوت، وعندما بلغ المنضدة مدّد جسمه، ووضع إحدى ساقيه أمامه والأخرى خلف جسمه ثم تثاءب؛ فأُصِبت بدهشة بالغة؛ فلم أرَ في حياتي إنساناً يتثاءب بمثل تلك الطريقة، ثم ركّز انتباهه على اللبن وحنى رأسه حتى لمست شفتاه السائل، فأجاب ستيل على نظرتي بقوله: إنه لا يستخدم يديه على الإطلاق، يبدو أنه ارتدّ إلى طبيعة الإنسان البدائي. أليس هذا غريباً؟

أحسست بفيليس باترسون تنكمش وهي تلتصق بي؛ فوضعت يدي على ذراعها لأهدّئها.

انتهى الشاب آرثر كارمايكل من لعق اللبن ثم مدّد جسمه مرة أخرى، ثم عاد بنفس الخطى البطيئة دون إحداث صوت إلى مقعده بجوار النافذة فكوّر جسمه وهو ينظر إلينا في صمت.

قادتنا الآنسة باترسون إلى الخارج وكل جسدها يرتعد، وقالت بأسى: بربك يا دكتور كارستيرز، ليس هذا آرثر... ذلك الشيء المكوَّر ليس آرثر.

هززت رأسي بحزن قائلاً لها: يستطيع العقل البشري أن يلعب حيلاً غريبة يا آنسة باترسون.

* * *

أعترف أني شعرت بالحيرة إزاء تلك الحالة الغريبة، ورغم أنه لم يسبق لي أن رأيت آرثر قبل أن تنتابه تلك الحالة الغريبة في طريقة المشي والطرف بعينه إلا أنه ذكّرني بإنسان أو شيء ما لا أستطيع أن أحدده.

ساد الهدوء في أثناء تناول العشاء، وعندما انسحبَت السيدات سألني ستيل عن رأيي في مضيفتي فأجبته قائلاً: يجب أن أعترف لك بإحساسي نحوها بنفور لا أستطيع أن أعلله. ويجب أن أعترف أيضاً بأنها تملك قوة سحرية غامضة، إنها امرأة ذات قوى مغناطيسية طاغية.

كان ستيل على وشك أن يقول شيئاً، ولكنه تراجع ثم قال أخيراً: وهي مولعة أشد الولع بابنها الصغير.

وبينما كنا نجلس في غرفة الاستقبال الخضراء بعد العشاء وقد انتهينا من شرب القهوة ونحن نتحدث في مختلف الموضوعات سمعت صوت مواء القطة خارج الباب كأنها تتوسل لكي يفتح أحدهم لها الباب، ولكن أحداً لم يكترث بها، ولأنني أحب الحيوانات فقد نهضت من مكاني قائلاً للسيدة كارمايكل: هل أسمح للمسكينة بالدخول؟

امتقع وجهها بشكل ظاهر، ولكنها أومأت لي برأسها، فتوجهتُ إلى الباب وفتحته، ولكنني لم أجد شيئاً في الخارج فقلت: غريب! أقسم إني سمعت مواء القطة.

وبينما كنت أعود إلى مقعدي لاحظت أن الجميع يراقبونني عن كثب فداخلني إحساس بعدم الارتياح، وبعد ذلك ذهبنا إلى النوم في وقت مبكر وصحبني ستيل إلى غرفتي ثم قال لي: هل حصلت على كل ما تريده؟

- نعم، شكراً لك. ولكن بالمناسبة، سبق أن أخبرتَني أن في هذا المنزل شيئاً غير طبيعي، ورغم هذا فالمنزل يبدو طبيعياً.

- هل تستطيع أن تقول إنه بهيج؟

- لا، فالحزن يظلله في الظروف الراهنة.

قال ستيل: طابت ليلتك وأتمنى لك أحلاماً سعيدة.

وقد حلمت بالفعل، حلمت بالقطة البائسة. واستيقظت من نومي فَزِعاً وأدركت فجأة سبب تفكيري في القطة، فقد كانت القطة تَموء خارج الباب. ولم يكن باستطاعتي أن أنام والمواء مستمر. أشعلت شمعة وتوجهت نحو الباب ولكن الممر خارج الباب كان خالياً، وطرأت على ذهني فكرة: قد تكون القطة محبوسة في مكان ما. كانت نهاية الممر تقع إلى اليسار حيث توجد غرفة نوم السيدة كارمايكل؛ فاتجهت إلى اليمين، وما كدت أخطو بضع خطوات حتى انقطع المواء ثم سمعته من خلفي، فاستدرت بحدة لأسمع الصوت من جديد بوضوح عن يميني.

أحسست برعدة تسري في بدني ربما لمرور تيار هوائي، وعدت إلى غرفتي وعاد الهدوء مرة أخرى، وسرعان ما استغرقت في النوم حتى الصباح.

* * *

بينما كنت أرتدي ثيابي لمحت من النافذة الشيء الذي تسبب في إزعاجي أثناء الليل، كانت القطة الرمادية تزحف ببطء على الحشائش، وخُيّل إليّ أنها تريد أن تهاجم قطيعاً من الطيور الصغيرة. ثم حدث بعد ذلك شيء غريب! لقد رأيت القطة تسير بين الطيور ويكاد شعرها يلمسها فلم تفزع الطيور، ولم أستطع أن أفهم ما يحدث أو أجد له تعليلاً مقبولاً. ظلّ الموضوع يشغل بالي لدرجة أنني اضطُررت إلى ذكر تلك الواقعة في أثناء تناول الإفطار فقلت للسيدة كارمايكل: هل تعلمين أن لديك قطة غير طبيعية؟

سمعت صوت احتكاك فنجان الشاي بالطبق بين يدي فيليس باترسون ورأيت شفتيها ترتجفان وأنفاسها تتلاحق بسرعة وهي تحملق في وجهي بشدة، وخيّم الصمت برهة ثم قالت السيدة كارمايكل بضيق: أعتقد أنك مخطئ؛ فلا توجد قطة في المنزل ولم تكن لدي قطة قَطّ.

اعتراني الارتباك وحاولت تغيير دفة الحديث بسرعة وأنا في دهشة أسأل نفسي: لماذا صرّحَت السيدة كارمايكل بعدم وجود قطة في المنزل؟ هل هي قطة الآنسة باترسون ولا تعلم ربة المنزل عنها شيئاً؟! وربما تكون السيدة كارمايكل من المعادين للقطط.

* * *

كانت حالة المريض على ما هي عليه، وأجريت له في تلك المرة فحصاً كاملاً واستطعت أن أدرس حالته عن قرب، وبناء على اقتراحي اتُّخذت الترتيبات كي يقضي المريض معظم أوقاته

مع أفراد الأسرة. وكنت أهدف من وراء ذلك إلى مراقبة الشاب عن كثب دون أن يفطن، وعسى أن يوقظ روتين الحياة اليومية في نفسه بعض الذكريات، إلا أن سلوكه ظلّ دون تغيّر.

كان الشاب هادئاً مسالماً وكان يُظهِر احتراماً شديداً لزوجة أبيه، أما بالنسبة للآنسة باترسون فقد كان يتجاهلها تماماً، إلا أنه كان كثير الحرص على الجلوس في أقرب مكان من السيدة كارمايكل، ورأيته ذات مرة يمسح رأسه في كتفها.

شعرت بالقلق أمام تلك الحالة وكنت واثقاً من أن وراء المسألة سراً لا أتبينه، فقلت لستيل: هذه حالة شديدة الغرابة.

فقال ستيل: ألا تذكّرك هذه الحالة بشيء معيَّن؟

ذكّرتني تلك الكلمات بالأفكار التي طافت برأسي في اليوم السابق. كان الغموض يحيط بالمسألة كلها؛ فهناك موضوع القطة الرمادية والحلم الذي رأيته، وذهبت إلى الخادم لأستفسر منه فسألته: هل تستطيع أن تخبرني شيئاً عن القطة التي أراها؟

قال الخادم بأدب: القطة يا سيدي؟!

- ألم يكن هناك قطة؟

- كان لدى السيدة قطة، قطة كبيرة، لكن كان لا بد من التخلص منها للأسف الشديد، كانت حيواناً جميلاً يا سيدي.

سألته ببطء: هل كانت رمادية اللون؟

- نعم يا سيدي.

- هل أنت واثق أنه تمّ قتل القطة؟

- كل الثقة يا سيدي، لم تشأ السيدة أن ترسلها للطبيب البيطري وفعلت ذلك بنفسها، كان ذلك منذ أسبوع، والقطة مدفونة تحت شجرة خشب الزان الكبيرة.

فكّرت بعد انصراف الخادم عن سبب تأكيد السيدة كارمايكل أنه لم يكن يوجد قطة قَطّ في المنزل، وعندما التقيت بستيل سألته: ستيل، أريد أن أوجه إليك سؤالاً. هل رأيت أو سمعت عن قطة رمادية في المنزل؟

لم تبدُ عليه الدهشة لدى سماعه هذا السؤال وقال: سمعت عنها الكثير ولكنني لم أرَها.

- ولكن في أول يوم عندما رأينا الآنسة باترسون...؟

أخذ يرمقني بنظرات ثابتة ثم قال: رأيت الآنسة باترسون تسير وحدها في الحديقة.

بدأت أفهم وسألته: إذن فالقطة...؟

أومأ برأسه وأجاب: أردت أن أرى دون أن أحيطك علماً ما إذا كنت تسمع ما نسمعه.

- إذن فأنتم جميعاً تسمعون الصوت؟

- لم أسمع من قبل عن شبح قطة يحوم داخل منزل.

أخبرتُه بما أعلمني به الخادم فأعرب لي عن دهشته قائلاً: هذه أخبار جديدة بالنسبة لي؛ فلم أكن أعرف هذه الحقيقة.

- ولكن ما معنى هذا؟

هزّ رأسه قائلاً: الله وحده يعلم، ولكنني أقول لك يا

كارستيرز إنني خائف؛ هذا الصوت يحمل معنى التهديد.

قلت له بحدة: التهديد؟! لمن؟

- لا أستطيع أن أقول.

لم أفهم المعنى الذي يقصده قبل حلول الليل. كنا نجلس في غرفة الاستقبال الخضراء كما كنا نفعل ليلة وصولي عندما سمعنا صوت مواء مرتفع خارج الباب، ولكنه كان غاضباً في تلك المرة ويحمل لهجة التهديد. ثم توقف المواء وسمعنا صوت مقبض الباب يتحرك بعنف كأن مخلب قط يعبث به، فاندفعنا نحو الباب ولكننا لم نعثر على شيء. كانت فيليس ترتعد من الفزع في حين حاكى وجه السيدة كارمايكل وجوه الموتى، وكان آرثر وحده هو الذي يتربع في جلسته هادئاً كالطفل معتمداً برأسه على ركبة زوجة أبيه.

وضعت الآنسة باترسون يدها فوق ذراعي وصعدنا الدرج وهي تقول لي: ماذا يعني كل هذا يا دكتور؟

- لا نعرف السبب بعد، ولكنني سوف أتوصل لمعرفة السر قريباً. لا تخافي شيئاً فأنا مقتنع بأنه لا يوجد خطر يهدد حياتك شخصياً.

نظرت إليّ بارتياب ثم قالت: هل تعتقد ذلك حقاً؟

- أنا واثق مما أقول.

قلت هذا وأنا أتذكر منظر القطة وهي تتمسح برجليها بوداعة، مما يعني أن التهديد ليس موجَّهاً إليها.

* * *

كنت أستلقي على السرير لأنام عندما داخلني شعور غامض سبّب لي بعض القلق، وخُيل إلي أنني أسمع خربشة مخالب قط وصوت شيء يتمزق؛ فقفزت من السرير واندفعت بسرعة نحو الممر، ورأيت في نفس الوقت ستيل يندفع إلى الممر من الجانب الآخر، وكان الصوت صادراً من مكان على يسارنا فقال ستيل بارتياع: هل سمعت الصوت يا كارستيرز؟ هل سمعته؟

أسرعنا نحو غرفة السيدة كارمايكل فلم نرَ شيئاً يمرّ أمامنا، ولكن الصوت توقف. ألقينا أضواء شموعنا على باب السيدة كارمايكل وحدق كل منا إلى وجه الآخَر بدهشة وقال ستيل هامساً: هل تعرف ماذا كان الصوت؟

أومأت برأسي قائلاً: صوت مخلب قط يمزق شيئاً.

سرت في بدني رجفة بسيطة ثم صحت بدهشة وأنا أخفض الشمعة التي أحملها: انظر هنا يا ستيل.

وكان المقصود مقعداً يستند إلى الحائط كان كساؤه ممزَّقاً إلى شرائح بالطول، ففحصنا المقعد عن قرب ونظر إليّ ستيل وهو يقول: مخالب القط، لا شك في هذا.

انتقل بصره من المقعد إلى الباب المغلق قائلاً: هذا هو الشخص الذي ينصبّ عليه التهديد، السيدة كارمايكل.

لم أستطع النوم في تلك الليلة؛ فقد بلغت الأمور حداً يتطلب الحركة السريعة. وكنت أعلم أن شخصاً واحداً بيده مفتاح السر، وازدادت شكوكي في أن السيدة كارمايكل تعرف أكثر مما تصرّح به.

ازداد شحوب وجهها صباح اليوم التالي وهي تنزل من حجرتها لتناول الإفطار، وظلت تنظر إلى الطعام دون أن تقربه. وكنت على ثقة من أن إرادة حديدية هي التي تمنعها من الانهيار. طلبت منها بعد الإفطار أن أتبادل معها بعض الحديث قائلاً لها: سيدة كارمايكل، لديّ أسباب تجعلني أعتقد أنك تواجهين خطراً داهماً.

أجابت دون اكتراث قائلة: حقاً؟

أكملت حديثي قائلاً: هنا في هذا المنزل شيء موجود يقف منك موقفاً عدائياً.

ردّت باحتقار: لا أصدق شيئاً من هذا العبث.

قلت لها بجفاف: المقعد الموجود أمام غرفتك تمزّق تماماً الليلة الماضية.

رفعت حاجبَيها متصنعة الدهشة وهي تقول: حقاً؟ ربما كان مجرَّد مزاح سخيف.

قلت لها: ليس الأمر كذلك، وأريد منك أن تصارحيني، ولتعلمي أن هذا لمصلحتك.

صمتت قليلاً وأجابتني: أصارحك بأي شيء؟

قلت لها بلهجة جادة: بأيّ شيء يلقي الضوء على الغموض الذي يحيط بالموضوع.

ضحكت وهي تقول: أنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق.

رغم هذا فقد كنت مقتنعاً بأنها تعرف شيئاً خطيراً لا تريد

البوح به، وأن بيدها مفتاح السر الغامض بالنسبة لنا، ولكنني لم أجد وسيلة لإقناعها بالكلام. على أية حال قررت اتخاذ كل الاحتياطات الممكنة مقتنعاً بأن خطراً جسيماً يتهددها، وقمت مع ستيل بفحص حجرتها في الليلة التالية قبل أن تذهب إليها واتفقنا على أن نتبادل نوبات الحراسة للممر.

أخذتُ نوبة الحراسة الأولى التي انقضت دون حادث، ثم جاء ستيل في الثالثة صباحاً ليأخذ نوبته. كنت متعَباً من أثر السهر في الليلة السابقة ومن ثَمّ نمت في الحال وحلمت حلماً كثير الغرابة، حلمت أن القطة الرمادية تجلس تحت سريري وتنظر إليّ متوسّلة، ثم أدركت من نظراتها أنها تطلب منّي أن أتبعها فاستجبت لرغبتها. قادتني القطة إلى الجناح الآخَر من المنزل حيث توجد غرفة من الواضح أنها مكتبة، ووقفَت القطة على قدميها الخلفيتين وهي تشير بقدميها الأماميتين إلى رفّ معيّن للكتب وهي لا تزال ترمقني بتلك النظرات المتوسلة، ثم بَهتَت صورة المكتبة والقطة وفتحت عينَيّ على نور الصباح.

انتهت نوبة ستيل دون حادث. وأخبرته بأمر الحلم، وبناء على طلبي قادني إلى غرفة المكتبة التي تطابق جميع التفصيلات التي رأيتها في الحلم، وأطلعتُه على المكان الذي كانت تقف فيه القطة، ولدهشتنا وجدنا مكان أحد الكتب خالياً فقال ستيل: لقد انتزع أحدهم كتاباً من هذا الرفّ.

وعندما فحص ستيل موضع الكتاب الناقص قال: ما هذا؟ يوجد مسمار خلف الرفّ تمزقت فيه وتعلّقت قطعة من الغلاف.

فحص ستيل قطعة الورق بعناية ولم تكن مساحتها تزيد على بوصة مربعة، ولكن كلمة واحدة ظاهرة عليها لها دلالتها، كلمة «القطة».

حملق كل منا في الآخَر ثم قال ستيل: لقد بدأت الأمور تدور في رأسي، هذا فظيع!

- أريد أن أعرف موضوع الكتاب المفقود. هل تعتقد أنه توجد وسيلة لذلك؟

قال ستيل: ربما يكون اسمه مُدرَجاً في قائمة هنا، أو ربما تكون السيدة كارمايكل...

هززت رأسي نفياً وأنا أقول له: لن تقول السيدة كارمايكل شيئاً.

- أهذا ما تعتقده؟

- أنا واثق من ذلك؛ فبينما نتخبط نحن في الظلام تعرف هي الحقيقة، ولأسباب خاصة بها لا تحب أن تتكلم وتفضّل الخطر الفظيع على أن تبوح لنا بالسر.

انتهى اليوم دون وقوع حوادث؛ فتذكرت الهدوء الذي يسبق العاصفة وداخلني إحساس غريب بأن المشكلة في طريقها إلى الحلّ وأن الحقائق موجودة في انتظار من يكشف النقاب عنها. ولم يخِب ظنّي، وبوسيلة شديدة الغرابة.

حدث ذلك حينما كنا نجلس في غرفة الاستقبال الخضراء كالعادة بعد العَشاء، وكنا غارقين في الصمت عندما جرى فأر صغير على أرض الغرفة، وفي غمضة عين قفز آرثر كارمايكل

من مقعده وجرى مقتفياً أثر الفأر الذي كان قد اختبأ في جحر، وقبع آرثر على الأرض يتربّص بالفأر وكل جسده يرتعد في تحفّز. كان شيئاً فظيعاً، ولم يعُد يساورني الشك في ذلك الشيء الذي كان منظر الشاب يذكّرني به وهو يزحف على الأرض دون أن يصدر صوتاً.

طردتُ الفكرة باعتبارها مستحيلة ولكنني لم أستطع إبعادها عن ذهني. لا أكاد أتذكر ما حدث بعد ذلك لأن الأمر كله كان يبدو خيالياً، كل ما أذكره أننا ارتقينا الدرَج لنذهب إلى غرفنا.

* * *

وقف ستيل أمام باب غرفة السيدة كارمايكل ليقوم بنوبة الحراسة الأولى، واتفقنا على أن يوقظني في الثالثة صباحاً لأحل محله. لم أكن أخشى وقوع شيء للسيدة كارمايكل؛ فقد سيطرَت عليّ النظرية الغريبة التي تخيلتها، وكنت أقول لنفسي إن ما أتصوره ضرب من المستحيل.

تبدد سكون الليل فجأة عندما سمعت صوت ستيل يناديني، واندفعت بسرعة نحو الممر فرأيت صديقي يدقّ بعنف على باب السيدة كارمايكل قائلاً بانفعال: ولكن...! ولكنها هنا في الداخل يا رجل، في الداخل معها! ألا تسمع الصوت؟

سمعت القطة من وراء الباب تموء بوحشية، ثم سمعت صوت صرخة عالية ثم صرخة ثانية، وتعرّفت على صوت السيدة كارمايكل فصحت قائلاً بحدة: الباب، لا بد من تحطيم الباب وإلا دخلنا بعد فوات الأوان.

دفعنا الباب بأكتافنا بكل ما نملك من القوة، وتهاوى الباب وكدنا نسقط على الأرض. كانت السيدة كارمايكل ممدّدة على السرير غارقة في الدم! لم أرَ في حياتي مثل ذلك المنظر البشع! كان قلبها لا يزال ينبض ولكن جراحها كانت جسيمة لأن جلد العنق كان ممزَّقاً، فهمست وأنا أرتجف: المخالب!

ضمدت الجراح وغطيتها بضمادة، واقترحت سرّاً على ستيل ألاّ نخبر أحداً عن طبيعة تلك الجراح، خاصة بالنسبة للآنسة باترسون. ثم أرسلت برقية لاستدعاء إحدى ممرضات المستشفى.

* * *

كانت أضواء الفجر تتسلل من النافذة، ونظرت إلى الأرض المعشوشبة قائلاً لستيل: ارتدِ ثيابك لنخرج، سوف تتحسن حالة السيدة كارمايكل الآن.

ارتدى ستيل ثيابه على عجل ثم ذهبنا إلى الحديقة وقال ستيل: ماذا تريد أن تفعل؟

- سوف نحفر الأرض نبشاً عن جثة القطة، يجب أن أتأكد من موتها.

عثرت على مجرفة وبدأنا نحفر أسفل شجرة خشب الزان الكبيرة، وكُلّلت جهودنا بالنجاح. لم تكن مهمة ممتعة؛ فقد ماتت القطة منذ أسبوع إلاّ أنني رأيت ما كنت أريد التأكد منه وقلت لستيل: هذه هي القطة، نفس القطة التي رأيتُها في اليوم الأول لوصولي.

تشمّم ستيل الهواء بأنفه، كانت رائحة اللوز المرّ لا تزال موجودة، وتمتم ستيل: حامض البروسيك.

أومأت برأسي فسألني بلهفة: ما رأيك؟

- نفس ما يجول في خاطرك.

لم تكن نظريتي جديدة بالنسبة إليه لأنه فكر في نفس الشيء وتمتم قائلاً: هذا مستحيل، مستحيل! هذا مخالف لكل القوانين العلمية والطبيعية! لكن ذلك الفأر في الليلة الماضية... يا إلهي! ولكن هذا غير معقول.

- السيدة كارمايكل سيدة بالغة الغرابة؛ فهي تملك قوى سحرية غامضة ولديها القدرة على تنويم الأشخاص. لقد عاش أسلافها في الشرق الأقصى ولا ندري أيّ نوع من القوى استخدمَتها للتأثير على شخص كآرثر كارمايكل، ولا تنسَ يا ستيل أن آرثر لو ظلّ معتوهاً لاً حيلة له وظل على وقوعه تحت تأثيرها فإن جميع ممتلكاته تنتقل من الناحية العملية والقانونية إلى ابنها الذي أخبرتَني أنها تحبه إلى درجة الجنون، وقد كان آرثر يستعدّ للزواج.

- ولكن ماذا سنفعل يا كارستيرز؟

- سوف نبذل أقصى الجهد لنقف أمام رغبة السيدة كارمايكل في الانتقام.

* * *

تحسنت حالة السيدة واندملت جروحها بسرعة غير متوقَّعة، إلاّ أن آثار الجراح كان من المحتمل أن تبقى معها

حتى الموت. لم أحس من قبل بمثل العجز الذي أصابني في ذلك الوقت؛ فقد كانت القوة التي هزمتنا لا تزال في أوج سيطرتها، ولم يكن أمامنا سوى انتظار تبدد تلك القوة. وكنت مصرّاً على شيء: لا بد من إبعاد السيدة كارمايكل عن ولدن بمجرد أن نمنع تلك القوة من مطاردتها، وهكذا مرت الأيام.

* * *

حددت يوم الثامن عشر من سبتمبر موعداً لنقل السيدة كارمايكل، لكن حدث ما لم نكن نتوقعه في اليوم الرابع عشر. كنت أتناقش في المكتبة مع ستيل حول السيدة كارمايكل عندما جاءت إحدى الخادمات وقالت بانفعال: أسرع يا سيدي؛ لقد سقط السيد آرثر في البركة... ما كاد يضع قدمه في القارب المسطَّح حتى اندفع القارب واختل توازنه وسقط في الماء... لقد شاهدت كل شيء من النافذة.

اندفعت خارجاً من الغرفة وستيل يتبعني، وكانت فيليس بالباب وسمعت كلام الخادمة فجرَت معنا وهي تقول: لا يوجد مبرر للخوف لأن آرثر سبّاح ماهر.

كان سطح الماء ساكناً في حين ينزلق القارب فوق الماء، ولكننا لم نعثر على أثر لآرثر. خلع ستيل سترته وحذاءه وهو يقول: سوف أقفز إلى الماء وعليك أن تركب القارب الآخر وتبحث في الماء. ليس العمق كبيراً.

ظللنا نبحث دون جدوى وكانت الدقائق تتتابع بسرعة، وعندما كاد اليأس يستولي علينا عثرنا عليه. وسحبنا الجسد الذي فارقته الحياة إلى الشاطئ. لن أنسى ما حييت علامات

الحزن اليائس التي ارتسمت على وجه فيليس وهي تقول: آرثر لم... لم...

كانت شفتاها ترفضان النطق بالكلمة البشعة فقلت لها: لا، لا يا عزيزتي، لا تخشي شيئاً.

كنت أريد أن أطمْئنها وإحساسي الداخلي بالأمل ضعيف؛ فقد ظل الشاب تحت الماء لمدة نصف ساعة. وطلبتُ من ستيل أن يسرع إلى المنزل بحثاً عن أغطية دافئة وغير ذلك من الأشياء اللازمة وبدأت أجري بنفسي التنفس الصناعي، وظللنا نواصل جهودنا ما يقرب من ساعة دون أن تظهر على الغريق علامات الحياة. طلبت من ستيل أن يأخذ مكاني واقتربت من فيليس قائلاً لها برقّة: أخشى أن أخبرك أن الوقت قد فات كي نفعل شيئاً من أجله.

ظلّت صامتة لبرهة وجيزة، ثم ارتمت فجأة فوق الجثة الهامدة وهي تصيح قائلة بيأس: آرثر، آرثر! عد إليّ يا آرثر، عد إليّ.

تردد صدى صوتها في السكون، وأمسكتُ يد ستيل فجأة وأنا أقول بدهشة: انظر!

كانت مسحة خفيفة من اللون الأحمر تسري في وجه آرثر، فتحسستُ قلبه وصحت بفرح: استمر في إجراء التنفس الصناعي؛ الحياة تدبّ في جسمه.

مرّ الوقت سريعاً، وفيما يشبه المعجزة فُتحت العينان، عينان آدميتان تشعّان بالذكاء. واستقرت العينان على وجه فيليس وقال آرثر بصوت ضعيف: مرحباً فيل، أهذه أنت؟ كنت أفكر

أنك لن تأتي قبل الغد.

لم تطاوعها شفتاها على النطق ولكنها ابتسمت له، وأدار آرثر بصره حوله في حيرة ثم قال: ولكن أين أنا؟ ولماذا أحس بهذا الضعف الشديد؟ ماذا حدث لي؟! مرحباً يا دكتور ستيل.

أجابه ستيل بقوله وهو شارد اللب: كدتَ تموت غرقاً، هذا ما حدث.

عبس آرثر وقال: ولكن كيف حدث ذلك؟ هل كنت أسير في أثناء النوم؟

هزّ ستيل رأسه نفياً في حين قلت أنا: يجب أن نعود إلى المنزل.

حملق آرثر في وجهي فقامت فيليس بواجبات التعارف قائلة: هذا هو الدكتور كارستيرز، وهو ينزل ضيفاً عندنا.

ساعدْنا آرثر على المشي إلى المنزل، ولاح عليه أن فكرة مفاجئة طرأت على ذهنه فقال: أريد أن أسألك يا دكتور، هل يعطّلني هذا الحادث عن الاستعداد ليوم الثاني عشر؟

قلت له ببطء: الثاني عشر؟ أتعني الثاني عشر من أغسطس؟

- نعم، يوم الجمعة القادم.

قال له ستيل بحدة: اليوم هو الرابع عشر من سبتمبر.

كان قلق آرثر واضحاً وهو يقول: ولكن... ولكنني كنت أظن أن اليوم هو الثامن من أغسطس! هل كنت مريضاً؟

تدخلت فيليس في الحديث قائلة له بصوتها الرقيق: أجل، كنتَ فريسة مرض شديد.

قطّب آرثر جبينه ثم قال: أنا لا أفهم شيئاً. لقد كنت في صحة جيدة عندما ذهبت إلى سريري في الليلة الماضية، على الأقل لم يكن ذلك في الليلة الماضية على وجه التحديد؛ فقد حلمت، وأنا أذكر الأحلام.

قطّب جبينه مرة أخرى وهو يحاول أن يتذكر، ثم استرسل في حديثه قائلاً: شيء... ماذا كان ذلك الشيء؟ شيء مريع! شيء فعله بي أحدهم وكنت غاضباً يائساً، ثم حلمت أني تحولت إلى قطّة... نعم، شيء مضحك، أليس كذلك؟ ولكن الحلم لم يكن مضحكاً بل كان شيئاً فظيعاً! ولكنني لا أستطيع أن أتذكر فالحلم يفلت من ذاكرتي عندما أحاول التذكر.

وضعت يدي على كتفه وأنا أقول له: لا تحاول التذكر يا سير آرثر، كن قانعاً بالنسيان.

نظر إليّ في حيرة وسمعتُ فيليس تتنهد بارتياح. كنّا قد وصلنا إلى المنزل فقال آرثر فجأة: بهذه المناسبة أين ربّة المنزل؟

أجابته فيليس بعد لحظة تردد: مريضة.

قال باهتمام شديد: يا إلهي، يا للأم المسكينة! أين هي؟ هل هي في غرفتها؟

فأجبته: نعم، ولكن من الأفضل ألاّ تزعجها لأنها...

ماتت الكلمة على شفتيّ، وفُتح الباب في تلك اللحظة

وظهرت السيدة كارمايكل قادمة من الصالة وكانت نظراتها مركَّزة على آرثر، كانت نظرات تكشف عن الرعب وكان وجهها أبعد ما يكون عن الآدمية وهي تنظر إليه تلك النظرة، وارتفعت يدها نحو رقبتها.

تقدم نحوها آرثر بحنوّ صبياني قائلاً: مرحباً، إذن فقد كنتِ أنت أيضاً فريسة المرض؟ أعبّر لك عن أسفي البالغ.

ارتدّت مذعورة وعيناها زائغتان ثم أطلقت صرخة عالية وانسحبت مسرعة عبر الباب المفتوح. أسرعتُ إلى غرفتها فوجدتها مستلقية على فراشها فانحنيت فوقها أفحصها، ثم قلت لستيل الذي جاء يتبعني: خذ آرثر إلى غرفته ثم عد إليّ. لقد لفظت السيدة كارمايكل أنفاسها.

عاد ستيل بعد دقائق وهو يسألني بقلق: كيف حدث هذا؟ ما السبب؟!

- الصدمة، الصدمة لرؤيتها آرثر كارمايكل، آرثر الحقيقي وقد ارتدّ إلى الحياة، أو تستطيع أن تقول بعبارة أخرى إنها العدالة الإلهية.

تردد ستيل قبل أن يقول: هل تعني...؟

- حياة بحياة.

- ولكن...!

- أعلم أن حادثاً غريباً لا يمكن تفسيره قد سمح لروح آرثر أن ترتدّ لجسده، ورغم هذا فقد تعرض لجريمة قتل.

نظر إليّ في ارتياح وهو يقول بصوت منخفض: بحامض البروسيك؟

- نعم، بحامض البروسيك.

لم نتحدث أنا وستيل قَط في موضوع إيماننا، فمن ناحية كان آرثر يعاني من حالة فقدان الذاكرة، وكانت السيدة كارمايكل هي التي مزّقت رقبتها في حالة جنون مفاجئ، وكان ظهور القطة الرمادية مجرد خيال... إلا أنه توجد حقيقتان لا يمكن لعقلي أن يخطئهما: الأولى تمزيق كساء المقعد في الممر، والأخرى وهي أكثر دلالة هي العثور على قائمة المكتبة، فبعد بحث شاقّ اتضح أن الكتاب المفقود مجلّد قديم يبحث في تناسخ الأرواح البشرية وحلولها في أجساد الحيوانات.

شيء آخر، أحمد الله على أن آرثر لا يعلم شيئاً؛ فقد دفنت فيليس أسرار تلك الأسابيع في صدرها، وأنا على ثقة من أنها لن تكشف ذلك السر لزوجها الذي تحبه حباً شديداً والذي اخترق حاجز القبر بناء على دعوة من صوتها.

* * *

الغجرية

كان ماكفرلين يلاحظ في مناسبات عديدة نفوراً غريباً من جانب صديقه ديكي كاربنتر للغجر، ولم يكن يجد تعليلاً مقبولاً لذلك، ولكن الأسباب سرعان ما تكشّفت له عندما فسخ صديقه خطوبته من أستير لاوز.

كان ماكفرلين خطيباً للشقيقة الصغرى راشيل منذ عام، وكان يعرف كلتا الفتاتين منذ الطفولة، ولم يكن على استعداد للاعتراف بإعجابه الشديد براشيل ذات الوجه الطفولي والعينين اللتين تشعّ منهما البراءة. لم تكن تداني أستير جمالاً ولكنها كانت ولا شك أكثر عذوبة وصدقاً. وازدادت عُرى الصداقة توثّقاً حينما تمت خطبتهما للأختين، والآن فُسخت الخطوبة بعد أسابيع قليلة.

كانت حياة ديكي تجري بسهولة منذ شبابه المبكّر حين التحق بالبحرية التي يهواها منذ صباه، وكان من الأشخاص الذين يتمسكون بالعقل ولا يسمحون للعاطفة بالتحكم في تصرفاتهم. أخذ ماكفرلين يستمع إلى صديقه الذي تتدفق الكلمات كالسيل من بين شفتيه وداخله إحساس بأنه سوف يستمع إلى نبأ غير سار، ولكن الذي سمعه كان شيئاً مختلفاً!

لم يتطرق الحديث في البداية إلى أستير لاوز، وبدت القصة كأنها مجرد فزع صبياني إذ قال ديكي: تبدأ القصة بحلم حلمت به عندما كنت طفلاً، لم يكن مجرد كابوس... كانت غجرية، وأنت تعرف كثرة ظهور الغجريات في الأحلام، حتى في

الأحلام المفرحة. كنت أستمتع بتلك الأحلام إلى أبعد الحدود وكنت أحس أنني لو رفعت بصري فسوف أراها واقفة كما كانت تقف دائماً تراقبني بعينيها الحزينتين كأنما تعلم شيئاً لا أفهمه. لا أدري لماذا كنت أرتجف! وكنت أستيقظ في كل مرة فَزِعاً فتقول لي المربية: هكذا عدتَ تحلم مرة أخرى بالغجريات يا سيد ديكي؟

- هل كنتَ ترتاع عند رؤية الغجر الحقيقيين؟

- لم أكن قد رأيت حتى ذلك الحين واحدة من الغجريات. كنت أبحث عن كلبي الصغير الذي هرب من البيت، فاجتزت باب الحديقة وخرجت إلى الغابة المجاورة للمنزل ووصلت إلى منطقة مكشوفة حيث يوجد جسر خشبي مُقام فوق بحيرة، وكانت تقف أمام مدخل الجسر مباشرة غجرية تضع فوق رأسها منديلاً أحمر، نفس الغجرية التي كنت أراها في الحلم، كانت ترمقني بنفس النظرات كأنها تعلم شيئاً أجهله، ثم قالت لي بمنتهى الهدوء وهي تومئ لي برأسها: "لو كنت مكانك لما مررت بهذا الطريق"! ارتعدتُ لكلماتها ولكني استأنفت سيري نحو الجسر، وكان الجسر متآكلاً فتهاوى تحت ثقل جسدي وسقطت في البحيرة وأشرفتُ على الغرق. لم أستطِع نسيان ذلك الحادث قط، وداخلني شعور بأن مرجع ذلك إلى الغجرية. لقد أخبرتُك بذلك الحلم ليس لأن له صلة بما حدث بعد ذلك. أنا شخصياً أعتقد ذلك، ولكنني رويته لك لأنه كان نقطة البدء في الأحداث التالية، ولعلك تدرك الآن ما أعنيه بالإحساس بالغجرية، ولهذا فسوف أعود إلى تلك الليلة التي ذهبت فيها إلى منزل لاوز لأول مرة في أعقاب عودتي إلى إنكلترا.

تنهد ديكي والتقط أنفاسه قبل أن يتابع: كانت تربط بين أسرتي وأسرة لاوز أواصر الصداقة، ولم أكن قد شاهدت الفتاتين منذ كنت في السابعة ولكن آرثر الصغير كان صديقاً حميماً لي فاعتادت أستير أن تراسلني بعد موت آرثر. كانت تكتب لي خطابات لطيفة للغاية تُدخِل البهجة على قلبي، وكنت في أشد اللهفة للالتقاء بها، ولهذا كان الذهاب إلى منزل لاوز أول ما خطر على بالي. لم تكن أستير في البيت لحظة وصولي وقيل لي إنها ستعود في المساء، وجلستُ في أثناء العشاء بجوار راشيل، وبينما كنت أستعرض المائدة الطويلة بنظراتي أحسست بإحساس غريب أشعَرَني بالضيق، وعندئذ رأيتها.

- من التي رأيتها؟

- السيدة هاورث. كانت تختلف تماماً عن الموجودين، كانت تجلس بجوار لاوز العجوز وكانت تلفّ رقبتها بمنديل أحمر يبدو للناظر كأنه ألسنة من اللهيب، وقلت لراشيل: من هي تلك السيدة التي تضع حول رقبتها منديلاً أحمر؟ فقالت راشيل: "أتعني أليستير هاورث؟ إنها إنسانة بالغة الرقة". ولقد كانت كذلك في الواقع؛ كان شعرها أصفر رغم أنني كنت واثقاً من أنني قد رأيته أسود في المرة الأولى. كم يكون البصر خدّاعاً في بعض الظروف. وقامت راشيل بواجب التعارف بعد العشاء، وسرنا نحو الحديقة ودار الحديث بيننا عن تناسخ الأرواح.

- لكن هذا الموضوع بعيد عن دائرة اهتمامك يا ديكي!

- أظن أن هذا صحيح، وأذكر أنني أبديت دهشتي لشعور الإنسان عندما يلتقي بشخص لأول مرة كأنما يعرفه منذ زمن

بعيد، فقالت: "أتقصد المتحابّين؟"، ولاحظت رنّة غريبة في طريقة حديثها. وذكّرني ذلك بأمر لم أستطع أن أتذكره على وجه التحديد، ودار الحديث لحظات حتى نادانا لاوز العجوز من الداخل قائلاً إن أستير عادت وإنها تريد رؤيتي، فوضعَت السيدة هاورث يدها فوق ذراعي وقالت: "هل ستذهب إلى الداخل؟"، فقلت: "نعم"، فقالت: "لو أني مكانك ما دخلت الآن". أفزعتني كلماتها أشدّ الفزع لأنها كانت تتحدث بمنتهى الهدوء كأنها تعلم شيئاً لا أعلمه. كان صوتها بالغ الرقة فيه رنين الأسى الشديد كأنها تعلم ما سيحدث، واعتقدت أن ما أفكر فيه حماقة؛ فأدرت لها ظهري وأسرعت إلى داخل المنزل، وأدركت في تلك اللحظة أني كنت خائفاً منها، وأحسست بالراحة حين التقيت بأفراد أسرة لاوز ووجدتني وجهاً لوجه أمام أستير.

تردد ديكي برهة ثم أردف يقول: لم يكن هناك أدنى شك أنها سكنت قلبي منذ اللحظة الأولى.

ارتسمت في ذهن ماكفرلين صورة أستير التي وصفها ديكي ذات مرة، الجمال الكامل بقامتها المديدة وشعرها الأسود الغزير، ولم يندهش لاستسلام ديكي دون شروط.

قال ديكي: والذي حدث بعد ذلك أننا ارتبطنا بالخطوبة.

- في الحال؟

- لا، بعد نحو أسبوع. ولم ينقضِ أسبوعان حتى اكتشفت أنها لا تهتم بي.

وضحك ديكي ضحكة مريرة ثم استرسل قائلاً: حدث ذلك في الليلة السابقة لرجوعي إلى سفينتي القديمة. كنت أسلك الغابة

في طريق عودتي من القرية حين رأيتها (أعني السيدة هاورث)، وقفزت فزعاً عند رؤيتها تضع فوق رأسها منديلاً أحمر (وأنت تذكر أني رويت لك حلمي ومن ثَم تدرك سبب فزعي). سرنا معاً نتحدث بعض الوقت، وحينما اقتربنا من المنزل قالت لي: أنت تتعجل الدخول، لو أنني كنت مكانك ما تعجلت الدخول.

أدركت في تلك اللحظة أن شيئاً كريهاً في انتظاري، وبمجرد دخولي أخبرتني أستير أنها اكتشفت عدم حبها لي.

سأله ماكفرلين: وماذا بشأن السيدة هاورث؟

رد ديكي: لم أرَها قط بعد تلك الليلة.

- الليلة؟ أية ليلة؟

قال ديكي: رأيتها أمام باب المستشفى. كانوا يريدون فحص ساقي التي أصيبت في حادث إطلاق الطوربيد والتي كنت أشكو منها خلال الفترة الأخيرة، ونصحني الطبيب بإجراء عملية قائلاً: "إنها مجرد عملية بسيطة". وبينما كنت أغادر المكان اصطدمت بممرضة ترتدي مريلة حمراء فوق زيها الرسمي وقالت لي: "لو أنني كنت مكانك ما وافقت على إجراء العملية"! ثم اكتشفت أنها السيدة هاورث التي انصرفَت مسرعة قبل أن أستوقفها، ثم التقيت بممرضة أخرى سألتها عنها فأخبرتني أنه لا توجد في المستشفى ممرضة بهذا الاسم! يا له من أمر غريب!

سأله ماكفرلين: هل أنت واثق من أنها السيدة هاورث؟

- نعم. على أية حال أنا سعيد لأنني أخبرتك قبل ذلك بقصة الغجرية.

* * *

توجّه ماكفرلين نحو المنزل الذي يقع عند رأس التل ثم ضغط زر الجرس، وحينما فتحت له خادمةٌ الباب سأل: هل السيدة هاورث بالمنزل؟

- نعم يا سيدي.

تركته الخادمة في غرفة فسيحة تطل على البراري، ثم سمع صوتاً من إحدى حجرات الدور العلوي يغنّي. كانت المرأة الغجرية التي تقيم في البراري. انقطع الغناء فجأة فأحس ماكفرلين أن دقات قلبه تكاد تتوقف، ثم فُتح باب الغرفة. وتسمر ماكفرلين في مكانه وهو يتأمل ذلك الجمال الفتّان. كان يتوقع أن يرى غجرية سمراء، وتذكّر وصف ديكي لها. كان جمالاً نادراً يمكنك أن تقول إنه لا يوجد له نظير! وتمالك هدوء أعصابه وتقدم نحوها قائلاً: ربما لم نتعارف من قبل، ورغم حصولي على عنوانك من لاوز إلاّ أني صديق لديكي كاربنتر.

ظلت تتفحصه بنظراتها لمدة دقيقة أو دقيقتين ثم قالت: كنت على وشك الخروج إلى البراري، هل تحب أن تصحبني؟

فتحت الشرفة ثم خطت إلى الخارج وماكفرلين يتبعها، ولمح رجلاً بديناً تلوح عليه أمارات الغباء يدخن وهو جالس على أحد المقاعد، قالت: زوجي العزيز، سوف نذهب في نزهة قصيرة إلى البراري يا موريس، وسوف يتناول السيد ماكفرلين العشاء معنا بعد عودتنا، أليس كذلك؟

قال ماكفرلين: شكراً لك.

وبينما كان يسير خلفها في البراري همس لنفسه: لماذا تتزوج رجلاً كهذا يا ترى؟

شقّت أليستير طريقَها نحو بعض الصخور وهي تقول: سوف نجلس هناك وسوف تحدثني عما جئتَ لتقوله لي.

- هل تعرفين؟

ردت السيدة هاورث: أنا أعلم دائماً عندما تكون الأخبار السيئة في الطريق، أليست أخباراً سيئة عن ديكي؟

قال بأسف: أُجريَت له عملية جراحية بسيطة وتمت بنجاح تام، ولكن يبدو أن قلبه كان ضعيفاً. لقد تُوفّيَ تحت تأثير المخدر.

تمتمت قائلة: مرة أخرى! الانتظار فترة طويلة، طويلة. ثم رفعت رأسها قائلة له: حسناً، ماذا كنت تنوي أن تقول؟

ردّ ماكفرلين: مجرد سؤال، لقد حذرَته إحداهن من إجراء تلك العملية، ممرضة. وكان يظنها أنت، هل كانت أنت حقاً؟

هزت رأسها نفياً وهي تجيب قائلةً: لا، لم تكن أنا. ولكن ابنة عمي ممرضة ويمكن أن تبدو شبيهة بي في الضوء الخافت، ربما تكون هي التي رآها. ما أهمية ذلك على أية حال؟

سكتَت برهة ثم اتسعت عيناها فجأة وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت: يا إلهي، كم هذا مضحك! أنت لا تفهم.

اعترت الحيرة ماكفرلين وكانت لا تزال تتفرس في وجهه قائلة: كنت أعتقد أنك تفهم، كان ينبغي أن تفهم، أنت تبدو كأنك تمتلكها أنت أيضاً.

- أمتلك ماذا؟

ردت السيدة هاورث: الهبة أو اللعنة... سمّها ما شئت،

أظنك تمتلكها. ركز نظراتك على ذلك التجويف في الصخور، لا تفكر في أيّ شيء آخَر... آه، حسناً، هل رأيت شيئاً؟

– ربما كان مجرد تخيُّل، لقد رأيت التجويف للحظة وجيزة مملوءاً بالدم.

أومأت برأسها وهي تجيب: كنت أعرف أنك تمتلكها، هذا هو المكان الذي كان يقدّم فيه عُبّاد الشمس القرابين، عرفت ذلك قبل أن يخبرني به أحد، وتمرّ بي أوقات أعلم فيها كيف كانت مشاعرهم حول ذلك كأنّي كنت حاضرة معهم. ومن الطبيعي أن تكون لديّ هذه الموهبة؛ فكثيرون من أفراد عائلتي لديهم القدرة على التنبّؤ، وكانت أمي وسيطة روحية حين تزوجها أبي، كان اسمها كريستين وكانت لها شهرة واسعة.

سأل ماكفرلين: هل تعنين بالهِبة القدرة على التنبؤ بأشياء قبل حدوثها؟

– نعم، بالنسبة للماضي والمستقبل على السواء، وعلى سبيل المثال رأيتك تتعجب وأنت تسأل نفسك: لماذا تزوجتُ موريس؟ نعم، لقد فعلت ذلك، والسبب ببساطة أنني كنت أعرف أن شراً مستطيراً يتربص به فأردت أن أنقذه من ذلك الشر. هذا هو طبع النساء، مع الهبة التي أمتلكها فقد تكون لديّ القدرة على منع وقوع ذلك الشر، هذا إذا كان باستطاعة الإنسان أن يفعل. لم يكن باستطاعتي مساعدة ديكي لأن ديكي لم يستطع أن يفهم؛ كان خائفاً وكان صغيراً للغاية.

– كان في الثانية والعشرين من عمره.

– وأنا في الثلاثين، ولكنني لم أقصد هذا. توجد طرق

عديدة لتقسيم الإنسان بالطول والعرض والعمق، ولكن أسوأ الطرق تقسيمه بالزمن.

أخلدَت إلى الصمت فترة طويلة قبل أن تسمع قرع الجرس من داخل المنزل إيذاناً بحلول موعد الغداء، وفي أثناء تناول الطعام أخذ ماكفرلين يراقب هاورث خفية وأدرك أنه يحب زوجته حباً جنونياً، ولاحظ ماكفرلين أيضاً رقّة استجابتها للزوج. واستأذن بعد تناول الغداء قائلاً: سأبقى في القرية لمدة يوم أو يومين، فهل أستطيع أن آتي للزيارة في الغد مرة أخرى؟

- بالطبع، ولكن...

سأل ماكفرلين: ولكن ماذا؟

مرّت بيدها بسرعة فوق عينيها وهي تقول: لا أدري، كنت أتخيل أننا لن نلتقي مرة أخرى، هذا كل شيء. في رعاية الله.

سار ماكفرلين في الطريق على مهل، وأحس بالرغم منه بيد باردة تضغط بشدة على قلبه. ومرت سيارة مسرعة بجانبه، فارتمى على السور في لحظة خاطفة ليتفادى السيارة، وعلَت وجهَه صفرةُ الموت.

* * *

همس ماكفرلين لنفسه وهو يستيقظ في صباح اليوم التالي: يا إلهي! أعصابي مضطربة للغاية.

واستعرض في ذهنه الأحداث التي وقعت له بعد ظهر اليوم السابق: حادث السيارة المسرعة وتفكيره في اختصار الطريق في أثناء عبوره منطقة البراري، ثم الضباب المفاجئ الذي هبط

ونسيانه وجود مستنقع خطر في الطريق، ثم غطاء فوّهة مدخنة الفندق الذي سقط فجأة ورائحة الاحتراق التي شمّها خلال الليل والتي اكتشف أنها منبعثة من السجادة المشتعلة... كل تلك الأحداث لا قيمة لها، لا شيء فيها على الإطلاق، ولكن كلماتها ولهجة الثقة التي كانت تتحدث بها مما يؤكد له أنها كانت تعرف.

أزاح الغطاء بنشاط مفاجئ. سوف يكون أول شيء يفعله هذا الصباح أن يذهب لمقابلتها؛ فربما تَسبّب ذلك في التخلص من اللعنة، هذا إذا قُدّر له أن يصل سالماً! يا له من أحمق!

تناول إفطاراً خفيفاً وفي العاشرة كان يسير في الطريق، وفي منتصف الحادية عشرة كان يضغط بيده على جرس الباب ثم قال للخادمة: هل السيدة هاورث في الداخل؟

قالت الخادمة التي يفيض وجهها بالأسى: آه، أنت لم تسمع بالنبأ إذن يا سيدي؟

- أي نبأ؟

- السيدة أليستير، الحمل الوديع... كان سبب وفاتها الدواء المقوّي الذي كانت تتناوله كل ليلة. زوجها التعس يكاد يُجَن؛ فقد كان هو الذي أعطاها زجاجة غير صحيحة؛ فأرسلوا للطبيب ولكنه وصل بعد فوات الأوان.

طافت برأسه في الحال كلماتها: "كنت أعلم دائماً أن شرّاً مستطيراً يحلّق فوق رأسه فأردت أن أنقذه من ذلك الشر، هذا إذا كان باستطاعة الإنسان أن يفعل". آه، ولكن أحداً لا يستطيع أن يصنع ذلك.

واسترسلت الخادمة تقول: المسكينة! كانت شديدة الرقة، وكان يسوؤها أن ترى إنساناً يواجه المتاعب، لم تكن تتحمل آلام الآخرين.

ترددت الخادمة هنيهة ثم أردفت تقول: هل تحب أن تصعد لتراها يا سيدي؟ أظنك مما كانت تقوله عنك صديقاً كان يعرفها منذ زمن طويل، منذ زمن بعيد للغاية، هذا ما كانت تقوله.

تبع ماكفرلين الخادمة العجوز وهي تصعد الدرَج إلى غرفة تقع فوق غرفة الاستقبال التي سمع منها صوت أليستير وهي تغنّي من قبل، وكان في الغرفة زجاج للنوافذ يعلوه بعض البقع بحيث يلقي ضوءاً أحمر فوق السرير حيث ترقد غجرية تضع فوق رأسها منديلاً أحمر، تخريف! لا شك أنه كان يتخيل ما لا وجود له. وألقى عليها نظرة طويلة أخيرة.

* * *

قالت السيدة روز لماكفرلين: هناك سيدة تريد مقابلتك.

فنظر ماكفرلين إلى صاحبة المنزل وهو يقول لها باضطراب: عذراً يا سيدة روز؛ كنت أتخيل رؤية أشباح.

- حقاً يا سيدي؟! عادة ما يشاهد الإنسان في البراري أشياء غريبة بعد هبوط الظلام، هناك الشابّة البيضاء والحدّاد والشيطان والبحّار والغجرية.

- ماذا تقولين؟! البحّار والغجرية؟

- هكذا سمعتهم يقولون، كانت قصة مشهورة في أيام طفولتي.

- لا يدهشني أن تسمعي المزيد من تلك القصص.

- يا إلهي، يا لها من أشياء تلك التي تتحدث عنها! هل تدور القصة حول تلك الشابة؟

- أية شابة؟

- الشابة التي ترغب في مقابلتك. إنها الآن في غرفة الاستقبال، الآنسة لاوز، هذا هو الاسم الذي ذكرته.

- آه، راشيل.

أحس بشعور غريب مختلف عن كل المشاعر التي كان يحس بها منذ قليل، لقد كان يحوم في عالم آخَر ونسي كل شيء عن راشيل لأن راشيل تنتمي إلى هذا العالم وحده. فتح باب غرفة الاستقبال لتطالعه راشيل بعينيها اللتين تشعّ منهما البراءة والإخلاص، وفجأة كالرجل الذي يفيق من حلم أحس بموجة عاصفة من الفرحة تغمره. إنه حيّ... على قيد الحياة!

همس بصوت خافت: راشيل. ثم مد كفّيه ليحتضن بهما كفّيها.

* * *

الضّمير

أنا لا أؤمن بالأشباح، ربما لأنّ عقلي يرفض الاعتراف بها ويحاول أن يجد لها تفسيراً آخر، وتفسيري للشبح في قضية تروي هو أنه كان نوعاً من الهلوسة أو الشعور بالذنب، أو الاقتصاص من النفس، أو حتى ازدواج الشخصية... لكني لا أستطيع أن أجزم أيّ هذه التفسيرات أقرب إلى الصواب؛ فأنا لست عالماً نفسانياً بل مجرّد محقق خاصّ.

قد يكون هناك من يخالفني في الرأي، ولعلك أيها القارئ أحد هؤلاء. ولَمّا كنت لا أملك وسيلة لإقناعك فسأكتفي بسرد الأحداث كما وقعت مبتدِئاً بذلك اليوم من شهر يناير حين فتحَت سكرتيرتي باب غرفة مكتبي وقدّمت إليّ إحدى الزائرات قائلة: الآنسة سيلفيا تروي.

وانصرفت، فقدمت نفسي إلى الزائرة بقولي: أنا بيتر تشامبر، تفضلي بالقعود.

كانت في نحو الثلاثين من عمرها، صغيرة الحجم تطلّ من وجهها المستدير عينان سوداوان واسعتان كان يمكن أن تكونا جميلتين لولا نظرة غريبة فيهما لا يمكن وصفها، نظرة شاردة تائهة بعيدة لا تنمّ عن حضور صاحبتها. وكانت لا تزال واقفة، فقلت لها وأنا أحاول تجنّب النظر في عينيها المرعوبتين: تفضلي بالجلوس.

فقالت وهي تجلس على مقعد بجوار مكتبي: شكراً لك.

كان صوتاً عذباً رقيقاً مهذباً كصوت مطربة محترفة، وكانت ترتدي معطفاً من الصوف الأحمر ذا ياقة سوداء من الفراء وبيدها حقيبة جلديّة سوداء، ففتحت الحقيبة وأخرجت منها ثلاثمئة جنيه وضعتها على المكتب وأغلقت الحقيبة.

نظرت إلى النقود ولم ألمسها فقالت: ألا يكفي هذا؟

- ماذا قلت؟

- إن نظرتك إليها توحي بذلك؟

- نظرتي إلى ماذا؟

- إلى النقود. هذا أجرك، ويؤسفني أنّي لا أملك المزيد.

- نظرتي لم تكن توحي بشيء يا آنسة تروي. كنت أنظر إليها فحسب، وثلاثمئة جنيه قد تكون كافية وقد لا تكون، فذلك يتوقف على ما تريدينه منّي.

- أريد منك أن تقبض على شبح.

- أقبض على ماذا؟!

- أنا جادة فيما أقول يا سيد تشامبر.

- شبح؟!

- نعم، شبح قتل شخصاً ويهدّد بقتل شخصين آخرَين.

قلت: القبض على الأشباح ليس في نطاق عملي يا آنسة تروي، وإذا كان الشبح الذي تتحدثين عنه قد قتل شخصاً

فهناك جهات مسؤولة تستطيع بحث هذا الموضوع، هناك رجال الشرطة مثلاً.

- لا أستطيع الالتجاء إلى الشرطة.

- ولماذا؟

- لأنني إذا رويت القصة لرجال الشرطة فأنا أُدين نفسي وأُدين إخوتي.

- بماذا؟

- بارتكاب جريمة قتل.

وصمتت. فنظرت إليها بحيرة وسألتها: هل في نيتك أن تروي لي القصة؟

- نعم.

- ألا يترتّب على ذلك نفس الإدانة.

- لا أظن. سأروي لك القصة لأنني يجب أن أفعل ذلك ولأنني بحاجة إلى معونتك، ولكنك إذا ذكرت للشرطة ما سأرويه لك فسأنكر الرواية إنكاراً تامّاً. وحيث إنه لا يوجد أيّ دليل فلن تكون هناك إدانة لأحد.

- حسناً يا آنسة تروي، تَكلّمي.

- بدأت القصة منذ عام، في نوفمبر الماضي. كانت أسرتنا وقتئذ تتألف من أربعة أشخاص هم أنا وإخوتي الثلاثة، وكان آدم هو أكبرنا، وقد مات وهو في الخمسين من عمره.

- والآخرون؟

- كان جوزيف في السادسة والثلاثين، أما سيمون فهو في الثانية والثلاثين، وأنا في التاسعة والعشرين.

- تقولين إن جوزيف كان في السادسة والثلاثين؟

- نعم، لقد انتحر، أو المفروض أنه انتحر منذ ثلاثة أسابيع.

- يؤسفني هذا.

- والآن أظن أنه يحسن بي أن أذكر شيئاً عن خلفية القصة.

- إذا تفضلت.

- كان آدم أكبرنا كما قلت، وكان لنا جميعاً بمثابة الأب. كان أعزب غنيّاً ناجحاً، أما نحن...

وهزّت كتفيها، ثم استطردت قائلة: أما نحن فقد كان كسبنا محدوداً. كان جوزيف يعمل في تجارة الأحذية، وسيمون يعمل كاتباً في مخزن للأدوية، أما أنا فأعمل في أحد الملاهي، ويجب أن أعترف بأنني لست فنّانة متألقة.

- وما عملك بالتحديد؟

- كنت فيما مضى أتكلّم من بطني، أما الآن فأقوم بتقليد الشخصيات المعروفة فأقلّد أصواتهم وحركاتهم، وهو عمل متواضع كما ترى، ولكنّي قائمة به.

- وآدم؟ ماذا كان يعمل؟

- كان سمسار عقارات، وكان بارعاً وموفقاً في استثمار أمواله. ثم أنه كان في شدة البخل، ولعل ذلك هو السبب في بقائه أعزب. وكان بمثابة الأب، ولكنه لم يكن يساعدنا بالمال إلا عند الضرورة القصوى، أما النصائح والنقد فقد كان سخيّاً فيهما غاية السخاء. لا أزعم أنه كان قاسياً علينا، ولكنه لم يكن كريماً معنا. أظن كلامي واضحاً.

- واضح تماماً يا آنسة تروي.

- والآن سأتكلم عن الوصايا.

- الوصايا؟

- نعم، فقد اتفقنا فيما بيننا على أن يُوصِي كل منّا بثروته للآخرين، فإذا مات أحدنا وُزّعت تركته بالتساوي على من بقي حيّاً، أظن أنك تعرف معنى هذه الوصايا المتبادَلة.

- طبعاً، طبعاً.

- حسناً، حدث في العام الماضي أن حقق آدم أرباحاً طائلة في سوق الأوراق المالية فدعانا إلى قضاء أسبوعين في أحد المنتجعات الشتوية على نفقته، فرحبنا بدعوته. ووقع اختيارنا على الأسبوعين الثاني والثالث من شهر نوفمبر، وسافرنا معاً إلى منتجع وأقمنا في بيت فوق الجبال الخضراء.

ومرت بجسدها رعدة، وصمتت قليلاً ثم قالت: لا أعرف كيف نبتت الفكرة! لعلها كانت كامنة في أذهاننا أو لعل الإجرام كان يسري في دمائنا كالسم، ولكن جوزيف كان أول من تكلم.

- ماذا قال؟

- قال أننا يجب أن نتخلص من آدم، وكان آدم نائماً في غرفته في الطابق الأول. أما نحن الثلاثة فكنا نتناول الشراب أمام مدفأة كبيرة تتلظّى فيها النيران، ويبدو أننا أسرفنا في الشراب، فلمّا أدلى جوزيف باقتراحه وافقناه على الفور كما لو كان كل منّا قد أدلى بنفس الاقتراح في نفس الوقت. لا أريد أن ألوم أحداً فإن اللوم يقع علينا نحن الثلاثة بنفس القدر، ذلك أن أحداً منا لم يمتلك يوما ما مبلغاً كبيراً من المال. وفجأة خُيّل إلينا أننا نستطيع أن نمتلك هذا المبلغ الكبير ونستمتع به ونحن ما زلنا في مقتبَل العمر.

وارتجفت مرة أخرى وأخفَت وجهها بيديها وقالت: هل تسمح لي بأن أسرد باقي القصة باختصار؟

- كما تشائين.

- في اليوم التالي ارتدينا ثياب الانزلاق وصعدنا إلى قمة الجبل، ووقف آدم على حافة هوّة يربو عمقها على ألفَي قدم ويجري في أسفلها نهر صغير، وجاء جوزيف من الخلف ودفع آدم بيده فسقط في الهوة وانتهى كل شيء. سمعنا بعض أصداء ثم ساد الصمت. وحين عدنا أبلغنا السلطات ذات الشأن وقلنا إن آدم تعثّر وسقط في الهوة، وذهب رجال الشرطة لمعاينة المكان، وصدر قرار المحقق بأن الحادث وقع قضاءً وقدراً.

* * *

هنا نهضت من مقعدي وأخذت أسير في قاعة المكتب.

سرت أمامها وخلفها وحولها، ولكنها ظلّت في مكانها لا تبدي حراكاً. قلت أخيراً: لقد عرفنا الآن قصة الإدانة، فماذا عن الشبح والشخص الذي قتله الشبح؟

- إنه شبح آدم، وقد قتل جوزيف.

- عزيزتي الآنسة تروي، لقد قلتِ منذ لحظة إن جوزيف انتحر.

- آسفة يا سيد تشامبرز، أنا لم أقل لك ذلك.

- ولكن...

- أنا قلت إن المفروض أنه انتحر.

- هذا صحيح، ولكن ما الفارق؟

- هل أقول لك ما الفارق؟

- نعم، إذا تفضلت.

وعدت إلى مقعدي، ولكني لم أجرؤ على النظر إلى عينيها. قالت: أنا أقيم بالمنزل رقم ١٣٣ في شارع الملكة إليزابيث.

تناولت قلماً وسجلت العنوان، فقالت مكملة: أقيم في شقة بالطابق الرابع تتألف من غرفة واحدة.

فسجلت ذلك أيضاً فقالت: ومنذ شهرين في الخامس من شهر نوفمبر، أي بعد مرور عام تماماً على الحادث، جاء آدم لزيارتي.

فقلت وأنا القي بالقلم: جاء آدم لزيارتك؟! صبراً لحظة

يا آنسة تروي.

- ماذا هناك يا سيد تشامبرز؟

- أليس آدم هو الشخص الذي مات؟ أليس هو الأخ الذي قتلتموه؟

- بلى.

- وجاء لزيارتك؟!

- نعم.

- أين؟

كنت بعد ظهر اليوم الخامس عشر من نوفمبر قد خرجت لأتسوّق، وحين عدت إلى شقتي وجدته جالساً هناك على أحد المقاعد في انتظاري.

فتناولت القلم وقلت وأنا أتظاهر بالكتابة: هل أنت واثقة من أنه كان آدم؟

- كان شبح آدم، لأن آدم مات.

- طبعاً، طبعاً، كان شبح آدم. كيف كان شكله؟

- تماماً كما كان يوم الحادث، نفس ثياب الانزلاق ونفس القبّعة الخضراء.

- وهل تحدث إليك؟

- نعم.

- كيف كان صوته؟

- كالعادة، كان صوته عميقاً وحزيناً ولكنه غير غاضب.

- وماذا قال؟

- قال إنه عاد ليثأر منّا وإنه سيقتل جوزيف أولاً، ثم سيمون، ثم أنا. ونهض واقفاً بعد ذلك وفتح الباب وخرج.

- وأنت، ماذا فعلت؟

- اتصلت بأخوَيّ هاتفياً، فجاءا إلى شقتي ورويت لهما ما حدث، فلم يصدقاني بطبيعة الحال وقالا إن ما رأيته كان من فعل الخيال وإنني كنت مرهَقة الأعصاب في الفترة الأخيرة، ونصحاني بالذهاب إلى أحد الأطبّاء. واستطاعا في النهاية أن يصرفا ذهني عن حادث الشبح، ولم أفعل شيئاً، حتى بعد أن قُتل جوزيف.

- بعد أن انتحر؟

- لقد قطع شرايين معصميه ومات، ولكن لم يكن هناك سلاح ولم يعثر رجال الشرطة في شقته على أيّ سلاح ملوث بالدماء.

- قلتِ إنك لم تفعلي شيئاً بشأن الشبح في ذلك الوقت، فماذا يحملك على أن تفعلي الآن؟

- لأن آدم زارني مرة أخرى ليلة أمس. عندما عدت من عملي رأيته جالساً في نفس المقعد ومرتدياً نفس الثياب، وقال إنه نفّذ انتقامه من جوزيف وإن سيمون سيكون التالي، ثم نهض وفتح الباب وانصرف.

- وماذا فعلت؟

- أُغمي عليّ، وحين أفقت أصابتني نوبة هستيرية جمعت بعدها أطراف عزيمتي وانطلقتُ إلى شقة أخي سيمون. كان الوقت ليلاً ولكني لم أعبأ. ذهبت إليه حيث يقيم على مقربة من مقرّ عملي وضغطت الجرس حتى استيقظ من نومه وأدخلني، فرويت له ما حدث، ولكنه أيضاً لم يصدّقني وأصر على أنني يجب أن أذهب إلى أحد الأطباء. لكنني قررت اليوم أن أتخذ إجراءً ما. كنت قد سمعت عنك فجئت كي أرجوك أن تساعدني، فهلاّ ساعدتني يا سيد تشامبرز؟ أرجوك، أرجوك!

- سأفعل كل ما أستطيع يا آنسة تروي.

وسألتها عن بعض الأسماء والعناوين وأرقام الهواتف وعن مكان عملها وعمل أخوَيها، وسجّلت ذلك كله، ثم كتبت رقم هاتف بيتي ومكتبي على بطاقة قدّمتها إليها قائلاً: في استطاعتك أن تتصلي بي هنا أو في البيت متى شئت.

فابتسمَت لأول مرة وقالت: شكراً لك.

فوضعت النقود في أحد أدراج مكتبي وأنا أقول: حسناً، هيا بنا.

- إلى أين؟

- أريد أن أرى شقتك، هل ثمة مانع؟

- لا، مطلَقاً.

* * *

كانت شقتها في العنوان الذي ذكرَته تتألف من غرفة واحدة لها نافذتان، وحمام له نافذة، ومطبخ صغير بلا نوافذ، والنوافذ

كلها تُغلَق بمزاليج من الداخل. سألتها: هل أنت التي وضعت هذه المزاليج؟

- لا، لقد وضعها المستأجِر السابق.

- هذه مزاليج جيدة، أمّا باب الشقة فقفله قديم ويمكن فتحه بسهولة. هل لديك دليل هواتف؟

فجاءتني بالدليل، فاتصلت ببعض صانعي الأقفال ووعدني أحدهم بالحضور خلال نصف ساعة ومعه قفل ومزلاج بالمواصفات التي ذكرتُها له.

أعدّت الآنسة تروي القهوة ودار بيننا حديث ممتع لم يرد فيه ذكر للأحداث. قالت لي: لماذا لا تأتي الليلة لزيارتي حيث أعمل؟ لقد قلت لك إنني أعمل في ملهى بيلا؟

- متى تذهبين إلى الملهى؟

- يبدأ العمل في الساعة التاسعة ويستمر حتى الساعة الثانية صباحاً، والعرض متواضع وكذلك الأجور التي نتقاضاها، ولكننا لا نتكلف فوق ما نطيق، ولكل منا غرفته الخاصة وأنا أقضي الوقت بين العروض جالسة في غرفتي لأنني لا أحب الاختلاط بالزبائن. سأكون سعيدة إذا أتيت وشهدت الدور الذي أقوم به.

- سوف أحاول.

جاء صانع الأقفال فاستبدل قفل الباب بآخَر حديث متين وعززه بمزلاج قويّ، فقلت لها: أرجو أن يغنينا هذا القفل عن أي إجراء آخر.

- أتمنّى هذا، أتمنّى هذا. شكراً لك، لقد بدأت أشعر بالطمأنينة، تماماً كما يذهب الإنسان إلى طبيب بارع فيطمئنه. مجرّد وجودك يُشعِرني كأن كل ما حدث كان كابوساً وزال.

- يسرّني أن يكون هذا شعورك، والآن إلى اللقاء.

- هل ستراني الليلة في الملهى؟

- سوف أحاول.

* * *

كان سيمون تروي يعمل في مخزن أدوية بالشارع الرابع والسبعين، وكان المخزن صغيراً ومكدساً بالبضائع وتنبعث منه رائحة الأعشاب الطبّية والعقاقير والمواد المطهرة والغبار. أما سيمون فكان رجلاً قصير القامة أسود العينين أصفر الأسنان، وقد استقبلني بالابتسامة التقليدية التي يضعها البائع على شفتيه حين يستقبل أحد الزبائن، ولكني ما كدت أذكر له اسمي ومهنتي وغرضي من الزيارة حتى تلاشت الابتسامة عن شفتيه وبدت على وجهه دلائل القلق وقال: هلاّ تفضّلت بمرافقتي إلى غرفة المكتب حتى نستطيع الحديث.

كانت غرفة المكتب تقع في آخر الحانوت خلف فاصل من الزجاج، فقدم لي مقعداً خشبياً متواضعاً، لكني أردت أن أستوثق من أمره قبل أن أجلس فسألته: هل أنت سيمون تروي؟

- طبعاً، طبعاً.

فجلست وقدّمت له لفافة تبغ فتناولها بأصابعه النحيلة

وأشعلها وراح يدخّن بسرعة ونهم. تحدثت إليه فأصغى باهتمام وانتباه، ورويت له كل ما قالته لي أخته سيلفيا وذكرت له المبلغ الذي دفعته لي كأتعاب. وحين فرغت من حديثي كان قد أتى على لفافة التبغ فأشعل لفافة أخرى وقال: يهمّني يا سيد تشامبرز أن تعرف كم أنا قلق على أختي.

فأطرقت برأسي ولم أجب، فقال: سيلفيا مريضة يا سيد تشامبرز، وأنا واثق من أنك لا بد قد لاحظت ذلك.

فأطرقت برأسي مرة أخرى وقلت: هل لك أن تخبرني بما حدث في فيرمونت؟

- هل تعني ما حدث لآدم؟

- نعم، إذا تفضّلت.

- لم نكن على مقربة منه عندما سقط، كنّا نحن الثلاثة نقف بعيداً وكان هو يسير على حافة الهاوية، ويبدو أنه أصيب فجأة بدوار فانزلق وسقط في الهاوية. سمعنا صيحة ثم انتهى كل شيء. وعندما جاء رجال الشرطة كان الثلج يتساقط ولم يجدوا آثار أقدام عند الحافة، واستطاعوا العثور على بعض أجزاء من ثيابه عالقة بجدار الهوة، لكن كان من المتعذر الوصول إلى مكان الجثة وإخراجها.

- هل لديك أية فكرة عن الأسباب التي حملت أختك على سرد القصة العجيبة التي روتها لي؟

- أعتقد أن هناك سبباً واحداً، وهو أنها تعاني من انهيار عصبي شديد.

- وهل لهذا الانهيار العصبيّ سبب معيَّن؟

- تُرى هل حدثتك عن موضوع الوصايا المتبادلة؟

- نعم.

- لقد وُزعت تركة آدم علينا بعد خصم الضرائب فكان نصيب كل منّا خمسين ألفاً من الجنيهات، وفيما يختصّ بي فقد أودعت نصيبي أحد البنوك ومضيت في عملي كالعادة، وكذلك فعل جوزيف. أما سيلفيا فقد تركت عملها في الملهى وسافرت إلى أوروبا، ولم يمضِ عام حتى كانت قد أنفقت نصيبها عن آخره. وأعتقد أنها أصيبَت بصدمة شديدة حين وجدت أنها يجب أن تبدأ حياة الكفاح من جديد. لقد اتسم تفكيرها وتصرفاتها بالشذوذ وراحت تتحدث عن مؤامرة مزعومة دبّرناها لقتل آدم، ثم انتقلت من ذلك إلى حكاية الشبح.

- وما قصة انتحار جوزيف؟

- قصة متناهية في البساطة. كان جوزيف شاباً وديعاً منطوياً على نفسه، وقد أُصيب منذ نحو ستة شهور بآلام في المعدة مصحوبة بغثيان، ورفض الذهاب إلى طبيب ولكني أجبرته على ذلك. دلّت صورة الأشعة على أنه مصاب بأورام في المعدة، وقال الطبيب إنها أورام حميدة لكن اعتقد هو أنها أورام خبيثة، واتفقنا على إجراء جراحة. وقبل الموعد المحدَّد قتل نفسه.

- أعرف أنه مزق شرايين يديه، ولكن ما حكاية السلاح الذي لم يُعثر عليه؟

فارتسمت على شفتَي سيمون ابتسامة حزينة وأجاب:

لقد اقتنعت الشرطة بالتفسير الذي أوردتُه. لقد انتحر جوزيف في الحمام؛ مزّق شرايين معصميه ونزف حتى مات، ولكنني كنت أعرف طباعه وعاداته جيداً وأعرف مدى اهتمامه بالنظافة. لقد وجد رجال الشرطة آلة الحلاقة في الحمام لكنهم لم يجدوا النصل، وكان واضحاً أن جوزيف قد أخرج النصل من الآلة ومزق به شرايينه ثم ألقى به في دورة المياه وأطلق الماء، وقد اقتنع رجال الشرطة بهذا التعليل، وكان يجب أن يقتنعوا فأنا أخوه وأعرف عاداته وطباعه كما لا يعرفها أيّ إنسان آخر.

فقلت له وأنا أنهض واقفاً: شكراً لك يا سيد تروي.

- لحظة من فضلك يا سيد تشامبرز.

- ماذا؟

وظهرت عليه دلائل الحيرة والتردد، ثم تشجع وقال: أعتقد أنك يجب أن تردّ الأتعاب إلى أختي يا سيد تشامبرز.

- لماذا؟

- لأنها ليست بحاجة إلى شرطيّ سريّ خاصّ بل هي بحاجة إلى طبيب.

- أوافقك على ذلك.

فابتسم بارتياح وقال: لقد قمت ببعض الاستعلامات فوقع اختياري فعلاً على أحد الأخصائيين في الأمراض العصبية والنفسية، وسأذهب بها إليه بطريقة ما.

- حسناً تفعل، وفيما يختص بالأجر فالطبيب أحقّ به منّي،

ولكني أرى أنه ليس من الصواب أن أردّه إليها حتى لا أصيبها بمزيد من الانزعاج والاضطراب. سأرد المبلغ إليك أنت، وهو ليس معي الآن ولكني سأحضره لك في بيتك الليلة.

- أرجو أن تحتفظ بخمسين جنيهاً لقاء ما أضعت من وقتك.

- شكراً لك. سأقابلك الليلة.

- هل تعرف عنوان شقتي؟

- نعم، فقد ذكرته لي أختك.

- أنا أعمل هنا حتى الساعة العاشرة، ثم أنطلق إلى شقتي فأغتسل وأتناول العشاء.

- سأحاول مقابلتك قُبَيل منتصف الليل، فهل يناسبك هذا الموعد؟

- تماماً، شكراً لك يا سيد تشامبرز، لقد كنت كريماً غاية الكرم.

وشددت على يده وانصرفت.

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء عندما دخلت ملهى بيلا وفي جيبي مئتان وخمسون جنيهاً من الأجر الذي تقاضيته من سيلفيا. جلست إلى إحدى الموائد الخلفية لأشهد الدور الذي تقوم به سيلفيا، وكان الملهى معتماً والطعام تافهاً والشراب رديئاً ودور سيلفيا سيئاً للغاية. قامت بمحاكاة بعض

الشخصيات البارزة من الرجال والنساء ولكن بطريقة فجّة تفتقر إلى الموهبة، وكان النص سخيفاً والنكات أشدّ سخفاً. ولعل أروع ما فيها كان صوتها؛ كان صوتاً عجيباً متعدد الطبقات على نحو يبعث على الدهشة، فهو تارة رقيق ناعم وتارة أخرى جهوريّ خشن لا يصدّق مَن يسمعه أنه منبعث من حنجرةِ مثل هذه الفتاة الرقيقة.

لكن العرض كان من السوء بحيث لم أُطِق البقاء طويلاً، فغادرت الملهى قبل أن تفرغ من دورها، وقريباً من نصف الليل ذهبت إلى منزل سيمون.

كان سيمون تروي في الطابق الثالث، فضغطت زر الجرس ولكني لم أسمع جواباً؛ فضغطته مرة أخرى ولم أسمع جواباً، فعالجت المقبض ففُتح الباب ودخلت. كان سيمون تروي جالساً إلى طاولة صغيرة ومِرفقه مستند إلى حافة الطاولة وعيناه تحملقان إلى مقعد أمامه، في حين كان على الطاولة قدحان، أحدهما على مقربة من سيمون وفي قاعه بقيّة من شراب والآخر أمام المقعد الخالي وهو مليء بالشراب إلى حافته.

اقتربت من سيمون وهززته ونظرت إلى وجهه، ثم أسرعت إلى حيث كان الهاتف واتصلت بالشرطة وأبلغت عن وفاته.

* * *

كان مفتّش الشرطة الذي كُلّف بالتحقيق صديقاً لي يُدعى باركر، وقد استطاع خبراؤه تحديد أسباب الوفاة بسهولة وسرعة. قالوا إن الوفاة نجمت عن التسمم بالسيانور، وإنهم وجدوا هذه المادة مركّزة في قاع القدح الذي كان في متناول يد سيمون

والذي وُجدت عليه بصمات أصابعه. أما الشراب في القدح الآخر والذي خالياً من السيانور فلم يجد الخبراء عليه أيّ أثر لبصمات، كذلك لم يسفر البحث والتفتيش عن وجود أية قنينة في الشقة فيها أثر للسم.

بعد أن تم نقل الجثة والقدحين ولم يبق في الشقة سوانا التفَتَ باركر إليّ وسأل: والآن، ما القصة؟ وماذا أتى بك إلى هنا؟

- هل تؤمن بالأشباح أيها المفتّش؟

- أحياناً، لماذا؟ هل ستروي لي قصة عن شبح؟

- ربما.

ثم رويت له القصة بكاملها، وذكرت سبب وجودي بشقة سيمون تروي. وفي النهاية قال: هيّا بنا، يجب أن أتحدث إلى الفتاة.

* * *

وجدناها في غرفتها الخاصة بالملهى وأكّدت لنا أنها لم تبرح غرفتها طول الليل إلا لتظهر على خشبة المسرح. كانت غرفتها تطل على ممرّ طويل ينتهي بباب خلفيّ صغير يؤدي إلى الشارع، وقد استجوب باركر جميع موظفي الملهى والعاملين فيه فلم تتعارض أقوالهم مع ما قالته سيلفيا، وفي النهاية اصطحب باركر الفتاة إلى مركز الشرطة فذهبتُ معهما، وهناك أعاد استجوابها وألحّ عليها بالأسئلة طوال عدة ساعات، ولكنها أصرّت على أقوالها وأكدت أنها لم تبرح غرفتها إلا لتقوم

بدورها على خشبة المسرح.

كان بعض رجال الشرطة يروحون ويجيئون ويتحدثون إلى باركر بهمس، وأخيراً صاح المفتّش بالفتاة: عودي إلى بيتك ولا تبرحيه لكي نعرف أين نستطيع أن نجدك.

فقالت في تواضع: حسناً يا سيدي.

وانصرفت، فسألته: ما رأيك؟

- أظن أن هذه الفتاة تلعب لعبة خطيرة تفوق في دهائها كل ما سمعنا به، وليس لدينا أي دليل يدينها.

- ماذا تعني؟

- أنت تعرف طبعاً قصة الوصايا المتبادلة.

- نعم.

- وفاة جوزيف أولاً ثم وفاة سيمون الآن سيترتب عليهما أن تؤول تركتهما إلى الفتاة، وبذلك تظفر بما يربو على مئة ألف جنيه.

- إذن؟

- لقد انتحر جوزيف ولكن لم يوجد سلاح، ومن المحتمَل أن يكون قد قُتل. وقد مات سيمون، ويمكن أن يُقال كذلك إنه انتحر لولا... لولا أننا لم نجد أثراً لقنينة السمّ. لقد اختفت القنينة، تبخرت.

- والفاعل، هل هو الشبح؟

- بل هو الفتاة. لقد قتلت الأخوين واخترعت قصة الشبح

للتعمية والتضليل، وليس لدينا أيّ دليل ضدّها ولكننا سنجد الدليل، ثق من ذلك.

ثم ابتسم وقال: عُد إلى بيتك يا صديقي فدلائل التعب تبدو على وجهك.

- وأنت؟

- سأبقى هنا لكي أنجز بعض الأعمال.

* * *

عدت إلى بيتي في نحو الساعة الرابعة صباحاً، وما كدت أفتح الباب حتى سمعت رنين جرس الهاتف، فهرولت إلى الجهاز ورفعت السماعة فسمعت صوت سيلفيا وهي تهتف: سيد تشامبرز، أهذا أنت يا سيد تشامبرز؟

كان صوتها ينمّ عن الذعر والهلع فأجبت: نعم، ماذا حدث؟

- لقد اتصل بي.

- مَن؟

- آدم.

- متى؟

- الآن، قال إنه قادم وإنه...

وتلاشى صوتها فصحتُ: آنسة تروي، آنسة تروي!

فأجابت بصوت خافت: نعم.

- أريد منك أن تغلقي جميع النوافذ بالمزاليج.

فأجابت بذلك الصوت الرقيق الذي يشبه أصوات الأطفال: لقد فعلت ذلك.

- وأغلقي بابك وأوصديه بالمزلاج.

- فعلت ذلك أيضاً.

- لا تفتحي بابك لكائن مَن كان سواي، سأدقّ بابك وأتحدّث إليك من الخارج لكي تعرفي من الطارق، هل تعرفين صوتي؟

- نعم يا سيد تشامبرز.

- حسناً، سأحضر إليك فوراً.

ووضعتُ السماعة ثم اتصلت بالمفتّش باركر وقلت له: أظن أننا سنوقع بالقاتل، ومهما يكن من أمره فأنا أريدك أن تعدّ بعض رجالك المسلحين وتلحق بي في بيت الفتاة، هل تعرف العنوان؟

- طبعاً.

ووضعت السماعة وهرولت إلى الخارج.

* * *

جاء باركر ومعه عدد من رجال الشرطة، وكان أحدهم مسلحاً ببندقية. وعندما وصلنا إلى شقة الفتاة أشهر الرجال مسدساتهم وضغط باركر زر الجرس فسمعنا صوت شخص في الداخل يسأل: من بالباب؟

فقلت: أنا بيتر تشامبرز، أريد التحدث إلى الآنسة تروي.

فرد نفس الصوت العميق: ليست هنا.

- هذا كذب، أنا أعلم أنها بالداخل.

- لا تريد التحدث إليك.

- من أنت؟

- لا شأن لك بذلك، اذهب.

- آسف، أنا لن أذهب أيها السيد.

فقال الصوت العميق بشيء من الضيق: في بيدي الآن مسدس، فإذا لم تذهب أطلقت الرصاص على الباب.

وهنا جذبني باركر بعيداً عن الباب وصاح: نحن رجال الشرطة، افتح الباب.

- لا يهمّني من تكون، أنا أحذّرك للمرة الأخيرة، إذا لم تذهب أطلقت الرصاص.

فقال باركر: وأنا أحذرك، إذا لم تفتح الباب أطلقنا الرصاص. سأعد حتى رقم ثلاثة فإذا لم تفتح الباب اقتحمناه. واحد...

ولا جواب.

- اثنان...

وهنا انبعثت من الداخل ضحكة جنونية، فقال باركر: ثلاثة.

ولا جواب! وهنا تنحّى باركر عن الباب وأشار إلى حامل البندقية فانطلق سيل من الرصاص، وسمعنا صرخة ثانية وصوت جسم يسقط، ثم ساد الصمت فأشار باركر إلى اثنين من رجال الشرطة الأشدّاء فدفعا الباب بأكتافهما، وأعادا الكرّة مراراً حتى طار القفل من مكانه وفُتح الباب على مصراعيه.

كانت سيلفيا ممدة على الأرض جثة هامدة وقد مزّقَتها الرصاصات، ولم يكن بالشقة أيّ إنسان آخر. كانت جميع النوافذ مغلَقة وموصدة بالمزاليج، فانتشر رجال الشرطة في أنحاء الشقة بسرعة وحزم وقاموا بتفتيشها بدقة ولكنهم لم يجدوا أحداً.

ونظر إليّ المفتّش بحيرة وسألني والعرق يتصبب من جبينه: ما رأيك يا بيتر؟

* * *

ربما لأن عقلي يرفض الاعتراف بالأشباح فهو يحاول أن يجد لها تفسيراً آخر، وتفسيري للشبح في قضية تروي هو أنه كان نوعاً من الهلوسة، أو الشعور بالذنب، أو الاقتصاص من النفس، أو ازدواج الشخصية، أو دليلاً على براعة فتاة تتكلم من بطنها. وقد يكون هناك من يخالفني في الرأي، ولعلك أيها القارئ أحد هؤلاء.

* * *

المحتويات

الطيور المفترسة ٥
سر الجرة الزرقاء ٢٩
نداء الأثير ٥٩
المصباح ٧٩
حكاية السير آرثر كارمايكل الغريبة ٩٣
الغجرية ١٢١
الضمير ١٣٥